

٥٤

زرياب

أبو الحسن علي بن نافع

موسيقار الأندلس

الطبعة
الطبعة
الطبعة
الطبعة

أعلام العرب

٥٤

زُرِّيَابُ
أبو الحسن علي بن نافع
موسيقار الأندلس

بمقتله
الدكتور محمود أحمد الحفني

دار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفيالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ - ٩٠٥١٤٧

مقدمة

كان طبيعيا بعد صدور « اسحاق الموصلى » فى سلسلة
أعلام العرب أن يكون موضوع « زرياب » هو الكتاب التالى
من أعلام الموسيقى فى هذه السلسلة . ومردء هذا أن زرياب
تلميذ اسحاق وصورة صادقة من فنه ، واذن يعتبر تاريخه
امتدادا لتاريخ أستاذه .

وموضوع زرياب متسع الجوانب متعدد النواحي ، فان
إقامته لم تقتصر على بلد واحد أو قطر واحد ، بل عم نشاطه
الأقطار العربية فى مشرقها ومغربها حتى الأندلس ، مما أمكن
معه تقديم صورة شاملة عن الحضارة العربية فى أزهى عصورها
من الخليج الى المحيط .

وكما عنيت فى الفصل الأول من هذا الكتاب بتصوير
الجو الذى أحاط بزرياب فى بيئته ونشأته ببغداد ، كذلك عنيت
بعد ذلك فى فصول أخرى بعرض موجز لحالة القيروان قبل
قدومه اليها وأثناء اقامته بها ، كما تعرضت فى ايجاز للملامح
الصورة التى كانت قائمة فى الأندلس بما يوضح طبيعتها وجو
الحياة فيها ونظرة أهلها الى الموسيقى قبل رحلة زرياب اليها
وبعد اقامته بها .

وزرياب في حياته وتنقلاته بين البلاد العربية يمثل وحدة الوطن العربي الذي تنقل في أرجائه من بغداد الى شمال افريقية الى الأندلس ، مما يؤكد حقيقة أن جميع البلاد العربية وطن لكل عربي .

ونحن بهذا الكتاب تقدم مثالا يحتذيه الشباب في العصامية والطموح والكفاح ، وتجنب اليأس والاستسلام ، ومقاومة الشدائد والمحن ، والصبر والصمود دون تخاذل أمام مناوأة الحساد ومكايده الحاقدين وان علت مكاتهم وطفى سلطانهم وتفوذهم .

وقد سجلنا فيه فصلا أوضحنا به مدى تأثير زرياب وتأثير الموسيقى العربية في موسيقى الغرب . ولم يكن المقصود من ذلك مجرد الاستعلاء والمفاخرة ، فان هذا لن يقدح في فضل ما يستمتع به العالم كله من تراث الموسيقى الغربية في عصرنا الحديث . وان حديثنا عن بناء الأهرام من أجدادنا وما خلدوا من آثار دلت العالم على براعتهم في علوم الفلك والهندسة والرياضيات وغيرها ، انما هو توعية وحفز للجيل الحاضر الذي استطاع أن يبنى بلداً ويخلق أمة ، وكذلك لأبنائنا وأحفادنا من الأجيال القادمة الذين تنتظر على أيديهم ما هو أعظم وأجل شأننا . فتصل الموسيقى العربية بفضل جهودهم الى المستوى الرفيع بين موسيقات العالم ، وبما يتفق والمكانة الدولية للجمهورية العربية المتحدة ومركزها القيادي .

وقد طرقتنا في هذا الكتاب عدة موضوعات لم نسترسل فيها وان كانت جديدة بذلك ، كالموشحات وأثر زرياب في الاتجاهات التي نهضت بفن الغناء وصناعة الآلات مما أشرنا اليه في ايجاز مراعاة لمقتضيات الكتاب . واثنا لنطمع في أن يمتد جهد طائفة من الباحثين ومن أساتذة المعاهد الموسيقية الى استكمال هذه البحوث وأمثالها ، بما يزيد الفن ثروة وازدهارا ..

الفصل الأول

النشأة والبيئة

● النشأة الأولى .

● البيئة .

النشأة الأولى

ان الميلاد الغامض بين الأقطار والمجاهل من الأحياء ومن غمار الناس لا ينزل بمكانة صاحبه ، ولا يجعله صغير الشأن ولا مهين القدر . قد يولد الناشء من أبوين معدمين ، عضهما الفقر بنابه ، وضنت عليهما الدنيا حتى بالصباغة من العيش ، فيظل مغمورا كما لو هبط من السماء أو خرج من باطن الأرض ، وقد أنكر الزمان عليه خلقه ووجوده . فلا يعبأ التاريخ بميلاده ولا بتسجيل اليوم الذي خرج فيه الى النور .. وقد تمتد به المحنة فيطالع هذا الطفل دنياه بوجه يشبه حظه سوادا . وقد يهبط به الحظ المنكود أكثر وأكثر فاذا به في عداد السلع يباع ويشترى في سوق العبيد ...

على أن جميع هذه المحن لا تقف عقبة في سبيل العبقريه والتبوغ . فاذا بنا نجد ذلك الطفل ينمو ويزدهر ، فما يكاد يواجه اقبال الشباب حتى تسفر حياته المظلمة عن موهبة فذة تتحدى أكبر الفنانين في زمانه ، وفي حضرة أكبر خليفة . ثم لا يتهيب التنقل بين الأقطار والبلدان ما دام هو مطمئنا الى ما هيأته له شخصيته النفاذة من قدرة وطموح يحبوه بالرزق ويضمن له العيش السعيد .. ثم يبلغ به الاعتزاز بالنفس الى حد لم يسمح فيه للسلطان فضلا عن سواه ، وهو غريب في

أرضه وفي قبضة يده ، بتوجيه اهانة اليه وتعييره بلونه الأسود .
ثم يتجاوز المؤلف والمعهود في مثل موقفه فيطلب الى هذا
السلطان أن يكون السلاح هو الذى يقضى بينهما ، ولا يكون
اللون هو الحكم والفصل بين أقدار الناس .. ثم تدفعه العزة
والاباء الى مغادرة تلك الأرض التى جهلت قيمته وجحدت
قدره ، فيتابع مسيره فى أرض الله ، يعيش فى مناكبها ويأكل
من رزقه ، واثقا بأن نصيبه منه لن يفوته مادام مؤمنا بذاته واثقا
من مقدرته الشخصية على اجتياز الصعاب والتغلب على العقبات ..
ويسوقه الطالع الأيمن الى بلد فاء يستقبل فيه استقبال الغزاة
والقادة . ثم لا يمضى القليل من الزمن حتى يثبت أنه الضوء
الذى يشع فى رحاب وطنه الجديد ، ثم يتخطى أسواره
وجدرانه ليضىء فى أكثر من مكان وأكثر من وطن والتاريخ
الذى تنكر له طفلا فلم يحفل بتسجيل مولده سيتغنى بأثاره
المبكرة وكأما يلتبس التجاوز عن تجاهله اياه فى نشأته وينشر
بين الجميع ذكراه ويتولى تمجيد مآثره وتخليد الثناء عليه ...
فمن هو اذن ؟

انه ذلك الصبى الأسود اللون ، الذكى الملامح ، المستدير
الوجه ، الذى كسا شعره جبهته وانسدل حتى حاجبيه ..
أبو الحسن على بن نافع ، الذى عرفناه وعرفه التاريخ باسم
زرياب .

وتحدثنا أكثر المراجع أنه لقب بزرياب لسواد لونه وفصاحة
لسانه ، تشبيها له بطائر غرد أسود . الا أنه قد ورد فى المعاجم

« اللغوية أن « زرياب » بكسر الزاي هو الذهب أو ماؤه معرب
عن الفارسية . وليس ثمة ما يمنع من قيام التفسيرين معا بالنسبة
لعلى بن نافع إذ لا تناقض ولا اختلاف بينهما . فهو في منزلة
الطائر الأسود الغرد الذي أطلقوا عليه اسمه من باب التشبيه .
وهو أيضا صاحب الصوت الذهبي الذي يسير تصير المعاجم
وهو جدير به .

وقد أطلق اسم « زرياب » على مغنية ليست بسوداء
اللون ، هي « زرياب الواثقية » إحدى المغنيات الشهيرات في
العصر العباسي الأول ، وقد توفيت حوالي ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م)
وأشار إليها صاحب الأغاني وغيره أكثر من مرة . وليس في
أخبارها ما يدل على أنها سوداء . كما أن زمانها لم يكن بعيدا
كل البعد عن عصر على بن نافع .

أول عهدنا بزرياب أنه كان أحد موالى الخليفة المهدي
(١٥٨ هـ / ٧٧٥ م — ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) . ثم لا نعلم تاريخ
مولده على وجه التحديد ، شأنه في ذلك شأن كثيرين من أعلام
الشرق وعباقره الغرب الذين لم ينتبه اليهم التاريخ الا بعد أن
غبه ذكرهم وعلا قدرهم . وفي الصدارة من أسباب ذلك الانغال
أن المؤرخين قديما لم يكلفوا أنفسهم الجهد بتاريخ هؤلاء مهما
سما فنههم وتوالى الحديث عنهم ، وانما كان جل اهتمامهم منصرفا
الى تسجيل أعمال الملوك وأخبار كبار القواد والأمراء ، ولا
يكثرثون الا لأصحاب الحول والطول ومن في وسعهم البذل
والعطاء . أما هذا المولود ذو البشرة السوداء المغموز الأصل

والمعدن ، والذي تجرى حوله المساومة بالبيع والشراء في الأسواق فماذا عسى أن تكون أهميته التي تحملهم على العناية بأمر نشأته وتحديد يوم ميلاده ..

على أنه قد يستفاد من مراجعة مجموعة التواريخ التي تصادفنا في حياته بعد ذلك أن ولادة زرياب كانت حوالي عام ١٦٠ هـ (٧٧٧ م) أي أنه عند وفاة المهدي كان زرياب ما يزال صبيا لم يتجاوز التاسعة من عمره ^١ .

ونظرا لما توسمه فيه مولاه الخليفة من مخايل النجابة وفصاحة اللسان فقد من عليه بالعتق وتمتع بالحرية في مطلع فجر الصبا . وقد عاصر بعد ذلك من الخلفاء في بغداد الهادي ابن المهدي (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م - ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) ثم هارون الرشيد (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م - ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) الذي أتبع لزرياب أن يغنى بين يديه .

وكذلك تبدو المراجع القديمة خلوا من ذكر أي شيء عن

(١) ورد في كتاب الألفاني ج ٥ ص ٢٢٢ (طبعة دار الكتب) ان مغنية اسمها صلفة (بكسر الصاد وفتح الفاء) اشتراها الخليفة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م - ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) أو والده المعتضد بالله (٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م - ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م) من زرياب . ولا يمكن أن يكون البائع زرياب الموسيقار لتباعد الزمان والمكان بينه وبين الخليفين المذكورين . وربما كان أبو الفرج يعني المغنية زرياب الواقفية ، ذلك لان المهدي الذي كان زرياب أحد مواليه ولد عام ١٢٧ هـ وتوفي عام ١٦٩ هـ . والرشيد الذي غنى زرياب بين يديه قبل أن يشتهر ورحل من بغداد في زمانه ولي عام ١٧٠ هـ وتوفي عام ١٩٣ هـ ، وحيد الرحمن بن الحكم الذي عرف باسم عبد الرحمن الأوسط ولي امارة الاندلس عام ٢٠٦ هـ وتوفي عام ٢٢٨ هـ وقد دخل زرياب الاندلس في أوائل حكمه .

أسرته وعن موطنها الأصلي ، ولم تحدثنا عن أول من نزل من عشيرته مدينة بغداد . ولكن تلك المراجع تناولت الحديث عن الموالي بصفة عامة وخصوصا السود الذين يعد زرياب واحداً من عشيرتهم وأحد أفراد جنسهم .

كان الزنوج ضمن العناصر التي ازدحمت بها بغداد في هذا العصر وكان لهم أثر كبير في مختلف نواحي الحياة ، وكانوا في الغالب يستقدمون من سواحل افريقيا الشرقية . وقد عرفوا بالشجاعة النادرة واحتمال مشقة القتال . وكانوا في كثير من المعارك الحربية ينضمون الى فرق الجيش العباسي فيزداد الجيش بهم قوة ومنعة . والى جانب هذا كان لهم في الناحية الاجتماعية نشاط ملحوظ . كما كانوا يطلقون كلمة « السود » أو « السودان » على ما يشمل الأحباش أيضا . وقدما اتصل هؤلاء السود بالعرب فكان منهم بلال الحبشي مؤذن رسول الله ، ومنهم سعيد بن جبير سيد التابعين الذي قتله الحجاج . وكان من شعرائهم في العصر الأموي الحيقطان الذي هجا جريرا وفاخره بالزنج فقال :

والزنج لو لاقيتهم في صفهم لاقيت ثم جحاجحا^١ أبطالا
وكان معروفاً عن الزنج أنهم يتسمون بطلاقة اللسان ، ووفرة الحديث ، وشدة الأبدان ، وقلة الأذى ، وطيب النفس ، وضحك السن ، وحسن الظن . واشتهر الزنج الحقيقيون بصفاء الخلق ،

(١) جحاجج : جمع جعجع وهو السيد .

ورجاحة العقل ، ومعرفتهم بالحساب والفلك وأسرار الطب
وفنون التصوير والصناعات . وقد لبه من هؤلاء السود فيما
بعد كافور الاخشيدى الذى حكم مصر والشام ، وكان عبداً
أسود اشتراه الاخشيد بثمانية عشر ديناراً . وقد مدح المتنبى
سواده فقال :

فجاءت به انسان عين زمانه
وخلت بياضاً خلفها وماقيا

ومن قديم كان للبيض نساء من السود ، فأعشى سليم
كانت له دنائير بنت كعبوية الزنجى وكانت زنجية وقد رآها
تكتحل فقال :

كانها والكحل فى مرودها تكحل عينيها ببعض جلدها
وقد تزوج الفرزدق « أم مكية » الزنجية وكان يؤثرها
على جميع نسائه ويثنى عليها فى شعره .

وكثر استخدام هؤلاء السود فى العصر العباسى فامتلات
بهم قصور الأمراء ومنازل الأوساط حتى بيوت الفقراء .

ومن طبيعة الزنج ميلهم الى المرح ، وعدم احتمالهم للهموم ،
كما امتازوا بأن الرقص والايقاع فطرة لهم وطبع فيهم ، حتى
قيل : « لو وقع الزنجى من السماء الى الأرض ما وقع الا
بايقاع » .

البيئة

ان البيئة التي استقبل فيها زرياب صباه وشبابه قد أهلتها للكثير من ضروب الفنون وألوان الخبرة بشئون الحياة المختلفة . فلم يقتصر نبوغه على فنون الموسيقى والغناء فحسب ، بل كان فوق ذلك شاعرا مطبوعا وجامعا لكثير من أنواع المعرفة ، عالما بأحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء . وكان أيضا راوية ومحدثا اكتملت فيه جميع صفات الندماء .

وحسبه أن تكون بغداد هي المدينة التي شب فيها وترعرع وتأثر بأوساطها وبيئاتها وثقافتها ومدنيتها ، وعاشر أعلامها وعلماءها وأساطين فنانيها .

لقد بزغت بغداد في عصر العباسيين سائر المدن بما بلغت من أسباب المدنية الزاهرة التي لم ترق اليها مدينة سواها . فكانت بحق زهرة المشرق وجنة الدنيا . شيئت فيها القصور الفخمة وغرست في أنفائها البساتين والحدائق الغناء . وامتلات بالميادين الفسيحة ، وازدهمت بالمساجد الفخمة المشيدة في بناء ضخم وشكل هندسي جميل ، وقد زينت جدرانها بأروع الزخارف وأبدع النقوش .

وقد أخذت الدولة العباسية من مظاهر الأبهة والعظمة ما لم تعرفه دولة من قبل . فأصبح الخليفة في الحفلات الرسمية يخرج

بأعظم مظاهر الملك والخلافة ، في كوكبة من الحراس وفي زى نظامى . يتقدم الموكب فرقة من المشاة تحمل الأعلام ، ثم فرقة الموسيقى تصدح بحلو الأنعام . ثم يظهر خلفها جماعة الأمراء فوق جياذ مطهمة مزدانة . وأخيرا يقبل الخليفة على جواد أبيض ، يتبعه كبار رجال الدولة ، ثم بقية الحرس في نهاية الموكب .

وخطت الدولة خطوات واسعة في الناحية العلمية فامتلات بالمدارس ودور العلم واتسمت الدولة العباسية في عرف المؤرخين جميعها بأنها مطلع شمس العلوم والفنون ، ومشرق نور العرفان . فحق كانت بحق دولة العلم والتأليف والابتكار والتدوين والنقل والترجمة . وكان من أثر ذلك أن نبغ في كل علم وفن كثير من العلماء ، وصارت بغداد زهرة مدن الدنيا وكعبة طلاب العالم ، والمركز العلمى والأدبى الأول ، حتى لقد كان لزاماً على كل من تفوق في علم أو فن إذا رغب في الشهرة وذيوع الصيت أن يرحل الى بغداد وأن يتقرب بعلمه وفنه الى خلفائها وأمرائها . وكثرت فيها دور الكتب التى كانت أندية للعلماء والباحثين . واثرت المؤلفات ، ونشطت صناعة الكتابة والخط . وشيدت المراصد الفلكية والمصحات النخبة . ونبغ عدد كبير في علوم الطب وفن الصيدلة والرياضيات وغيرها .

وبلغت الدولة ذروة المجد والحضارة ، وكثر الخير واتسعت أبواب الرزق ، وتأنق القوم في مظاهر الجمال واللوان البذخ . فحضور الخلفاء والأمراء وأمثالهم مترفة كل الترف . وقد روى

أن الخليفة المتوكل أتفق على قصره المعروف بالعروس في مدينة « سر من رأى » ثلاثين مليوناً من الدراهم ، وعلى قصرى الجعفرى عشرة ملايين ، وقصر الغرب عشرة ملايين ، وقصر الشيدان عشرة ملايين ، وقصر المليح خمسة ملايين ، وقصر بستان الايتاخية عشرة ملايين . وبذلك بلغ مجموع ما أتفقه على قصوره وحدها أربعة وتسعين ومائتى مليون من الدراهم .

أما عن ترف الوزراء فقد كان الوزير « ابن الفرات » يملك أموالاً كثيرة تزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكان يستغل من ضياعه في كل سنة مليونى دينار ينفقها جميعها . وكانت في داره حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاتهم اليها غلمانهم يأخذون الأشرية الفقاع^(١) والجلاب^(٢) الى دورهم . وكان ابن الفرات لا يأكل الا بملاعق البثور . وكما روى عنه ابن خلكان كان لا يأكل بالملعقة الا لقمة واحدة .

وكان راتب « أبى طاهر » وزير الدولة من الثلج كل يوم ألف رطل . وكان الوزير « المهلبى » كثير الشغف بالورد . روى من رآه قال : « شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتاع له في ثلاثة أيام ورد بألف دينار ، فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة كانت في داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد في مائها فتتنفضه على المجلس فيقع على رعوس الجالسين » .

وبلغت الحالة الاجتماعية أرقى ما يتصوره انسان ، وتقدمت

(١) الفقاع : الشراب يتخذ من الشعير ، وسمى به لما يعلوه من الزبد .
(٢) الجلاب : بضم الجيم أو فتحها ، العسل أو السكر عقد بماء الورد (مغرب) .

أسباب الحياة ومعيشة الرفاهية ، وارتفعت قيمة الاجتماعات ، وازدهرت الندوات ، وابتشرت مجالس الأدب والثقافة . وكان النساء يشتركن مع الرجال في تلك المناظرات وهذه المجتمعات . وكان الأرقاء من الأمم المغلوبة — نتيجة للفتوحات الإسلامية المتلاحقة وحروب التحرر المتتالية ، لا يحصى عددهم كثرة من مختلف الجنسيات . وبلغ من وفرتهم أن كان امتلاك الرقيق في متناول الناس جميعا . وقد كان لذلك أثر كبير في الحياة الاجتماعية . وكان الرق يجمع بين شتات الأجناس والشعوب والديانات والثقافات . وعنى العباسيون عناية خاصة بتعليم الجوارى وتدريبهن في مختلف الفنون والصناعات . فإذا كانت الجارية ذات صوت حسن ومنظر جذاب اتجهوا بها الى تعلم الموسيقى والغناء حتى تجمع الجارية في الجمال بين حسن المنظر وحسن الشدو في النغم . وكان ذلك سببا في نشر الغناء على أوسع نطاق ، حتى ان المرء ليواجه هذه الظاهرة الفنية في كل مكان ... في الطرقات ، في المحال العامة والندوات الخاصة ، في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ، في بيوت الأغنياء ودور الفقراء . وشغف الناس جميعا بالغناء حتى بدا وكأنه ضرورة لكل انسان . وأقام النخاسون أصحاب هؤلاء الجوارى بيوتا^١ معدة للسمع في الأحياء المختلفة . وكثرت هذه البيوت في بغداد . وهذه المحال العامة للمغنيات والمغنين من العلمان كانت

(١) كانت هذه البيوت تسمى « بيوت القيان » . والقينة في اللغة الامة ، مغنية كانت أو غير مغنية ، ولكنها في العرف لا تطلق الا على الامة المغنية .

تلقى شدة اقبال الناس عليها للسمع ، لما يتوافر فيها من تهينة
جميع أسباب المتعة والأنس . ولم يتخرج من التردد عليها حتى
العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية . فابن فهم الصوفي
كان كلفا بسماع مغنية اسمها « نهاية » جارية ابن المغنى .
وابن غيلان التاجر يسمع غناء « بلثور » جارية ابن اليزيدى .
وأبو الحسن الجراحى القاضى يسمع غناء « شملة » . وأبو سليمان
المنطقى الفيلسوف الكبير وشيخ أبى حيان التوحيدي يسمع
غناء صبي موصلى فتن الناس فى عصره ، وهكذا ...

والظاهر فى قولهم هذا ، ورواياتهم فى هذا الصدد أن محال
الغناء كان منها المستهتر الذى يناسب العربدين ، ومنها المتحفظ
بعض الشئ الذى يناسب المتحفظين .

وما روى لنا يدل على أن الغناء فى هذا العصر كان غالبه
بالشعر العربى السهل القريب المعنى ، السائق اللفظ والوزن .
فقد كانت « قنوة » تغنى :

يا ليتنى أحيا بقربهم فاذا فقدتهم اقضى عمرى
و « سندس » تغنى :

مجلس صبيّين عميدين	ليسا من الحب يغلنوين
قد صيّرّا روحيهما واحدا	واقتهما بين جسمين
تنازعا كأساً على لذة	قد مزجاها بين دمعين
الكأس لا تعشّن الا اذا	أدتها بين محبين

و « درّة » تغنى :

لست أفسى تلك الزيارة لما
طرقتنا وأقبلت تشنى
طرقت « فليّة » الرصافة ليلاً
فهي أحلى من جسّ عودا وغنى
كم ليال بتنا نلذ ونلهو
وتسكّى شرابنا وثغفنى
هجرتنا فما اليها سبيل
غير أثا قول كانت وكنّا
وهكذا كان الشعر الغنائى سهلاً ، والمعانى قريبة يبدو
معظمها حول العشق والغرام والهجر والوصال .
وهذا الشغف بالغناء كان من عوامل تنمية الأحاسيس الفنية
والقدرة على الحكم للاتّاج أو عليه بالجودة أو الضعف . كما
استلزم بطبيعته تلقين الجوارى زيادة على فنون الغناء العزف
بالآلات ومعرفة فنون الشعر والأدب والرواية والقصص
والتندر ، ليتم الاستمتاع فى مجالس الطرب بكل هذه النواحي
مجتمعة .

وقد وصل الغناء على أيدي الجوارى فى هذا العصر الى
أبعد غاية من التقدم والسمو . وبلغ من عناية الخلفاء بهن أن قيل
أن الرشيد — وهو أول خليفة غنى زرياب بين يديه — اتخذ
ألفى جارية فى قصره ، لكل صنف منهن صنعة وفن وميزة فى
الأدب والموسيقى والطرب . والحق أن مجالس الغناء فى هذا
العصر كانت تعد من عجائب الفن .

وبلغ القوم من الأفاقة في المعيشة أن سنثوا للظرف والظرفاء
قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف . وصنفوا في
ذلك الكتب والمؤلفات ، نذكر منها على سبيل المثال :

١ — الموشى ، أو الظرف والظرفاء للوشاء

٢ — حدود الظرف »

٣ — ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر للرازي

٤ — ترتيب أكل الفواكه »

٥ — آداب الحمام »

٦ — الهدايا والسنة فيها لابراهيم الحربي

٧ — الزينة لحنين بن اسحاق

٨ — النبيذ وشربه في الولائم لقسطا بن لوقا

٩ — الايقاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي

ونسوق مثلاً من هذه المصنفات ما ورد في كتاب الموشى من
أدب اللياقة :

« اعلم أن من كمال أدب الأدباء وحسن نظرف الظرفاء ،
صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم .
فهم لا يداخلون أحداً في حديثه ، ولا يتطلعون على قارىء في
كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على
مسرّ سرّه ، ولا يسألون على ما وري عنهم علمه ، ولا يتكلمون
فيما حجب عنهم فهمه الخ ... » .

ووضعوا قوانين الظرف في الزى ، وفي أنواع الحلى ، وفي
التعطر ، وفي الشراب والموائد ، وما هو ظرف في الرجال دون

النساء ، وما هو ظرف في النساء دون الرجال وهكذا ...

وقد كان من أثر الطابع العلمى الذى طبع عليه هذا العصر أن تعرض العلم لهؤلاء الجوارى يؤلف فيهن الكتب والمصنفات، فذكروا مختلف أجناس الشعوب والرقيق من كل جنس ، وما يتميزن به ، وما يعاب عليهن ، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها . كما فلسفوا الكلام في الحسن ، ووضعوا قواعد للجمال . وأوجدوا ما يسمى « جهابذة النقد » ، وتكلموا في الألوان وحسنها . وأفاضوا في ذكر محاسن كل عضو وعيوبه ، من الشعر والجبين والحواجب والعيون والأنوف والحدود والشفاة والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء والأنامل وتطريفها بالحرمة والسواد والتحور والصدور والشدى ، واختلاف الأذواق في كبرها أو صغرها ، والخصور والأقدام . ومزجوا ما قيل في كل ذلك من التعبير الدقيق في اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهابذة النقد .

كما تفننوا في ذكر دقة الفروق بين المغنيات وفلسفة الغناء . فقالوا ان « علوة » أحسن ما تكون اذا رفعت عقيرتها . و « نهاية » اذا اندفعت في شدوها . و « بلثور » اذا رجعت . و « قلم » اذا تناوأت ^١ في استهلالها وتضاجرت على ضجرتها وتذكرت شجوها الذى قد أضناها وأنضاهما . و « سندس » اذا تشاجت وتدللت وتقتلت وقتلت وتكسرت .

(١) تفاخرت .

وتفلسفوا. فأخذوا يناقشون في تلك المصنفات هل الغناء
لذة الحس أو لذة العقل ؟ ولِمَ يكون الغناء ألد وأطيب إذا سند
المغنى آخر ؟ الخ ...

ووضعوا الكتب حتى في عود السواك ، وتنظيف الأسنان ،
والمستظرف من الخواتم والفصوص . ثم تقننوا فيما يكتب على
تلك الفصوص وما ينقشه أهل الهوى على خواتيمهم وما يكتب
على ذيول الأقمصة والأردية والأكمام .

فذكروا أنه كان لعرب ، جارية بعض الهاشميين ، ثوب
مطرز بالذهب ، مكتوب في وشاحه :

وانى لأهواء مسيئا ومحسنا

وأقضى على قلبى له بالذى يقضى

فحتى متى روح الرضى لا ينالنى

وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

وعلى طراز كنه :

إذا صد من أهوى وأسلمنى الكرى

ففرقة من أهوى أحر من الجمر

ورؤى مكتوبا على صدر قميص جارية بالفضة والذهب

سطرا سطرا :

يا فتى قلت اذ دعانى هواء

مستجيبا لصوته ليكا

ما بكت مقلتى لفقدك الا

جزعا أن أموت شوقا اليكا

وكتبت بنان جارية الخيزران على ترانين درءاعة^١ لها بذهب :
لم تقل قولاً ولكن حلفت
أنها أحسن عين أطرقت
زعمت أنى قد لاحظتها
أى عين لحظت فاعترفت
أظهرت حجة من يعشقها
وامتباحث غفلة وانصرفت
وعلى طراز كمها :

ليس بى صبر ولا بى جلد
قد قفى حبك عنى جلدى
ووجد مكتوباً على وشاح قميص جارية :
أحسن ما خلق الله وما لم يخلقه
شكوى فتاة وفتى يعشقها وتعشقه
فار الهوى دانية تحرقها وتمسرقه
يا حبذا الحب اذا دام ودامت حرقه
وكتبت جارية الأحذب على وشاح قميصها :
اذا وجدت لهيب الشوق فى كبدى
أقبلت نحو سقاء القوم أبرد
هبنى طفت يبرد الماء ظاهره
فمن لحر^٢ على الأحشاء يتقد

(١) ثوب واسع يلبس فوق الثياب مشقوق من الأمام .

وكتبت جارية أبى حرب على رداء لها مسك :
من ألف الحب بكى من شفته الشوق شكا
من غاب عنه الفه أو صد عنه هلكا
يا مالكا عذبتى بجوره اذ ملكا
رفقا بمملوكك ما يحل ذا الظلم لك
وكتبت أخرى على قنسوتها أيضا :
الحب يعرف في وجوه ذوى الهوى

باللحظ قبل تصافح الأجفان

ووجد على قنسوة « شمائل » الجارية :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى الليل سارى
فالناس فى سدف^١ الظلام ونحن فى ضوء النهار
وروى على عصاة جارية مكتوبا بالذهب :

ما كنت الا حلما رآته عيني فى الوسن^٢
يا يمح الفعل ويا أحسن من كل حسن

كما تفتنوا فيما يكتب على الوسائد والستور والبسط
والمقاعد والأبواب والقباب والأقلام والمقاصير . كما يكتبون
بالحناء والمسك على أيدي الجوارى وعلى أقدامهن . وينقشون
على الأقداح والراح والقناني والكاسات .

(١) السدف : الظلمة .

(٢) الوسن : النعاس .

كتب عبيد الماجن على كأسه :
 اشرب هنيئاً لا تخف طائفا
 قد آمن الطوائف^١ أهل الطرب
 وعلى كأس أحد الأدباء :
 إذا لم يمزج الندمان^٢ كأسى
 جعلت مزاجهما ماء الجفون
 وعلى كأس كاتب آخر :
 اشرب هنيئاً في أتم^٣ النعيم
 طاب لك العيش بطيب النديم
 كما كان ينقش على الأواني بالذهب والفضة .
 وتفنن الموسيقيون في النقش على آلات الطرب . فقد
 أهدى بعض الأدباء إلى قينة كان يهواها عوداً كتب عليه :
 من ذا يبلغ « نخلة » عن عبدها
 أنى إليك وإن بعثت قريب
 تستنطقين بحسن صوتك أعجبا
 يلعو بذاك صوابه فيجيب
 ووجد مكتوباً على طنبور جارية :
 يا أول الحسن يا من لا نظير له
 هلكت سحائب عيني نعمة الزير^٣

-
- (١) الطائف : الذي يحرس الناس ليلاً ويكشف أهل الريبة منهم .
 (٢) الندمان : المنادم على الشراب .
 (٣) الزير : أكثر أوتار العود حدة .

وأى^١ مزنة^٢ عزب^٣ لا تسح^٤ دما
من عاشق عند نغمات الطناير

وعلى طنبور آخر :

بكيت من طرب عند السماع كما
يبكى أخو قصص من حسن تذكير
وصاحب العشق يبكى عند شجوته
إذا تجاوب صوت البيم^٣ والوزير

ولئن اغتبط الفنانون والشعراء والأدباء بما أنتجته تلك
الحياة الاجتماعية من فن بديع ، وشعر رقيق ، وذوق رفيع ،
فإن رجال الدين ، وخصوصا المتزمتين منهم ، وأصحاب
التصوف ، والزهاد في الحياة ، ساءهم ما نجم عن ذلك من لهو
خليع واستهتار بلغ في بعض الأحيان درجة التبدل والفجور .
فقد كانت بغداد لنفس هذا التطرف والاسراف في أنواع
الملاهي وألوانها بقدر ما هي محبة لأهل الترف واللهو كانت
بغیضة الى أهل الورع والزهاد . وهكذا كانت بغداد كما قيل
في وصفها :

« مسجد وحانة ، وقاریء وزامر ، ومتهجد يرتقب الفجر .

(١) المزنة : المطرة .

(٢) العزب : مرق في العين تجرى منه الدمع .

(٣) البيم : اللظ أو لطر العود .

ومصطبج في الحدائق ، وساهر في تهجد وساهر في طرب ،
وتخمة من غنى ومسكنة من املاق ، وشك في دين وإيمان في
يقين . »



ولم يكن زرياب وقتئذ بعيداً عن قصور الخلفاء ، وهي
حينئذ قصور أولئك الذين انبعثت في رحابهم أضواء العلوم
والعرفان ، واحتشدت فيها ألوان الفنون والآداب . وهي فوق
ذلك حافلة بالمتع الرائع من مظاهر الأبهة وروائع العظمة
والجلال . فلا غرو أن يكتسب هذا الصبي الناشئ في ظل مثل
هذه الحياة السامية جميع أسباب الرفاهية والنعمة والتطرف ،
ويستسيغ الثقافة في جميع ألوانها ، ويستجمع المعرفة من جميع
أطرافها .

وقد عرضنا هذه الصور والأوصاف لهذه البيئة في بغداد ،
وهذه المعيشة ذات الألوان الرفيعة المسرفة في البذخ والمتطرفة
في النعيم ، لأننا سنلتقي بها ، بل وبأروع منها فيما يلي من حياة
زرياب حين يحل هذا العبقري الفذ بشمال إفريقية ، ويستقر
بعدها في أرض الجزيرة الخضراء بالأندلس ، فيكون هذا الناقل
الأمين لكل هذه الأوصاف والصور ، مبدعاً لها ومبتكراً فيها .
فاذا أضفنا الى كل هذه المؤثرات التي شكّلت صبا زرياب

وشبابه في بغداد أنه تلميذ ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق من بعده ، الى جانب أئذادهما المعاصرين من أعلام الموسيقى والغناء ، لا نجد غرابة ولا دهشة في أن ينفرد زرياب في فنه بكل جديد يكوّن منه شخصية بارزة متفردة على مدى العصور الذهبية وتتابع الأجيال في بغداد والأندلس .

2

9

ق

تم

ن

١٢



22

ق

قل



مكة

1.

de

الفصل الثاني

مقدمة

- معلمه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق .
- معاصروه من اعلام الموسيقى والغناء .
- انعكاس حالة بغداد العلمية والاجتماعية .

مدارسه

لقد تناول زرياب الثقافة من علوم وفنون ، نظرية وعملية ، واحاطة عامة بتجارب الحياة ، وأعمالها وتحصيلها ، من ثلاثة ينابيع صافية عذبة . واستمد معرفته من تلك المصادر الثلاثة التي قلما اجتمعت كلها لانسان واحد ، أو توافرت جميعها لأحد من الأفذاذ ، على مستوى رفيع مستكمل كما تمت له .
وتلك المصادر الثلاثة هي :

- معلماه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق .
 - معاصروه من أعلام الموسيقى والغناء .
 - انعكاس حياة بغداد العلمية والاجتماعية .
- واليك تفصيلها :



ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق :

مما لا شك فيه أن المعلم انما يعتبر المنهل الأول الذي يستمد منه التلميذ أصول العلم وموارد العرفان ، كما يعتبر التلميذ المرآة التي تنعكس عليها علوم المعلم وثقافته .
وقد اتفق المؤرخون على أن المعلم الأول لزرياب كان ابراهيم الموصلي . فلما تقدمت به السن ، وغلب عليه المرض ،

تولى ابنه اسحاق استكمال هذه الرسالة ، وواصل أمر تثقيف زرياب من بعده .

فماذا يمكن أن يكون زرياب قد أفاد من هذين الأستاذين الخطيرين ، وهما أعظم من أنجبت دولة بنى العباس في دنيا الموسيقى والغناء ؟

لقد قام ابراهيم الموصلى بمنادمة موسى وهارون ابني المهدي في حياة أبيهما ، وتولى القيام على تنشئتهما ورعايتهما ، وامدادهما بمقتضيات المجالس والمناديات وما يتصل بها . فلما مات المهدي أشرقت شمس السعادة على ابراهيم ، وضحكت له الدنيا ، فنثر عليه الخليفة الهادي من النعم ما يغرق في لجته . وحسبه في ذلك أن يجيزه في يوم واحد بمائة وخمسين ألف دينار .

وكان ابراهيم الموصلى الأنيس المقرب والجليس المحبوب لدى الهادي والرشيد من بعده . كما ورث ابنه اسحاق هذه المنزلة المرموقة مدى حياته عند الخلفاء ابتداء من هارون الرشيد .

وقد ألمعنا الى أن زرياب كان مولى للخليفة المهدي ، أعتقه وما يزال صيبا . وهو وان أصبح حراً ، طليقا من ربة العبودية ، فقد ظل دائم الاتصال بالبلاط مرتبطا بقصر الخلافة من قريب أو من بعيد ، بصفة أو بأخرى .

هاذن فقد كان زرياب الناشئ يسير في ركاب معلميه

ابراهيم واسحاق ويمشى في ضوء معارفهما . سواء أكان ذلك داخل قصور الخلفاء والأمراء أم خارجها .

لقد كان ابراهيم الموصلى هو الموسيقى الأول في بغداد ، والفنان المتفرد في زمانه ، فلا ريب أن زرياب وهو صاحب الموهبة الموسيقية الفذة والعبقرية النادرة ، قد أفاد من أستاذه في هذه الناحية أكبر افادة ، فأقن الموسيقى تأليفا وعزفا وغناء .

وكان الناس قبل ابراهيم الموصلى يعلمون جواريم الغناء على قدر لياقتهم واستعدادهم ، وكان ذلك مقصوراً على الجوارى السود وأشباههم . فرفع ابراهيم مكانة هذه المدرسة وكان أول من علم حسان القيان البيض هذا الفن ، وعمل على استكمال ثقافتهم في جميع النواحي التي تتطلبها مجالس المنادمة من أدب ورواية وقصص وتندر . فاجتمع لهم الجمال من أطرافه جميعاً : حسن المنظر ، ورائع الشدو ، وحلو الحديث . وبذلك أعلى من قيمة القيان بقدر ما أعلى من مكانة الموسيقى والغناء . وكانت هذه التجارة تدر عليه المال الوفير والثراء العريض . فقد كان يشتري الجارية ببضع مئات من الدنانير ، فإذا استوفت ثقافتها ، باعها بعشرات الآلاف ، حتى بلغ ثمن احدها من مائة ألف دينار . ولذلك قدرت ثروته بالملايين . وقد أحصاها ابنه اسحاق بأربعة وعشرين مليون درهم حازها من هبات الخلفاء والأمراء والوزراء ومن ثمن القيان وأجور تعليم الجوارى .

ولم يكن زرياب بعيداً عن معلمه في هذا الاتجاه . به

تلميذاً أو مساعداً فهو على كل حال قد أفاد من ذلك كله علماً وإدارة وخبرة . وقد لمس بنفسه ما لتعليم الجوارى وتثقيفهن من أثر بعيد في ترقية الذوق العام ، والشعور القوي بالجمال ، وتنمية الرغبة في طلب المزيد من فنون الغناء والشعر والرقص والطرائف .

وقد رأى زرياب كيف يدرس أستاذه هؤلاء الجوارى في مجال النظر ويعلمهن كتابة الأشعار الرقيقة تطريزاً على الملابس أو تدويناً على الآلات الموسيقية في إطار شامل من الإبداع ، ويمتد بذلك معهن إلى مرافق الحياة وألوانها ، حتى يبلغ تنسيق الموائد وألوان الطعام .

وكذلك رأى زرياب كيف افتتح أستاذه أول مدرسة ضمت ثمانين جارية بعث بهن إليه جماعات الأثرياء أو الأصدقاء ليتولى تثقيفهن وتدريبهن ، ثم أعادتهن إلى مواليهن بعد أن يتقاضى أجور هذا التعليم .

وتنطبع هذه الصور في ذاكرة زرياب فيحفظها ويحتفظ بها ، إلى مستقبل قريب ، وإن كان في بلد ناء بعيد .

وكان إبراهيم الموصلي عليماً بجميع أنواع الغناء وألوانه ، لا يسأله الخلفاء أو غيرهم شيئاً منه إلا وجدوه . كما كان متفرداً في أصول صوغ الألحان ، يتكرر الرائع منها ، ويبدع فيها بما لم يسبقه إليه غيره .

ولا شك في أن زرياب بلغت به اجابة أستاذه حين سأله الخليفة : كيف تصوغ الألحان ؟ فأجاب :

« يا أمير المؤمنين : أخرج الهم من فكري ، وأمثل الطرب بين
عيني فتفتح لي مسالك الألمان ، فأسلكها بدليل الايقاع ،
فأرجع ظافراً بما أريد » .

واذن فلم يجهل زرياب ذلك المفتاح الذي يفتح به نفس
الطريق الى الصياغة وابداع التلحين .



ويواصل زرياب الفتى الاستزادة من هذه الثقافة بعد مرض
ابراهيم وتقدمه في السن ، فتقوى علاقته بابنه اسحاق ليتم
ما بدأه أستاذه الأول في شكل أعم وأكمل .

ونحن نعلم ما كان يتصف به اسحاق من رقة الحاشية ،
وحلو الحديث وجم الظرف ، وكامل الثقافات المتنوعة بما أهله
أن ينزل من مجالس الخلفاء منزلة النديم المحب والجلس
الأنيس .

لقد كانت لاسحاق قدم ثابتة في سائر العلوم والآداب حتى
ليعجز الوصف عن تحديد مكاتته من النبوغ فيها . فقد كان
عالماً فقيهاً ، وشاعراً مجيداً ، وأديباً أريباً ، وقدما جم الظرف حلو
الشمايل ، وجليسا لطيف المعاشرة رقيق الحاشية لا يستغنى
عنه الخلفاء ، وراوي يروي أخبار القدامى والمحدثين بل وكثيرا
ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء الى غير قائلها . وكان
مغنيا عارفا بفن الغناء تمام المعرفة ، وعازفا ماهراً ، وملحنا
بارعا .

وهكذا كانت ثقافات اسحاق لا تقف عند وسيلة ولا تقنع
بغاية . فلم يقتصر فيها على فن ، فمع تفردّه بالمكانة الأولى في
الموسيقى والغناء ، فإن احترافه لهذا الفن لم يحل بينه وبين
تحصيله مختلف العلوم والفنون . ولم ينته أمر هذا التحصيل
الى ما له صلة مباشرة بالغناء والموسيقى كالشعر والأدب
والقصص ، بل تعداه الى كل ألوان الثقافة .

فلم يكن عجباً أن نرى فيما بعد تلميذه زرياب صورة من
أستاذه ، ملماً بألوان جميع هذه الثقافات ، متبحراً في كل فرع
من فروع المعرفة . فكان كاسحاق أسوة في غنائه ، وقدوة في
علمه وثقافته .

ولم يكن اسحاق مغنياً وفق ما تلهم الصدفة ويوحى به
الارتجال ويوجه اليه الصوت الحسن ، ولكنه تناول فن الغناء
المرتكز على أسس فنية . فوضع القواعد والأصول وضبط
الأوزان ، وأحكم الأجناس والمقامات ، وتصرف بها تصرفاً
يشهد بالدقة والعمق وحسن التنسيق . فأصبح الغناء في عصره
يعتمد على الأصول المحكمة والقواعد المدعمة . حتى التدوين
الموسيقى للألحان لم يغفل أمره ، بل وضع مبادئه حتى كان في
قدرته أن يتبادل ألحان الأغاني مع ابراهيم بن المهدي عن طريق
مجرد كتابة نصوص الشعر ووصف اللحن ، واذا ذاك يكون في
الامكان غناؤه تلقائياً قبل سماعه .

كل هذا وأكثر منه وعاء زرياب ، وسنراه بعد ذلك حين
يمارسه يتقنه الى أبعد مدى بعد ما يتم له الرحيل من بغداد .

وكان اسحاق من أمهر العازفين بالعود ، حتى لقد عزف في
حضرة الخليفة الواثق بالله على عود فاسد التسوية ، اذ الملوك
لا تصلح في مجالسها العيدان فلم يزل يضرب بذلك العود الفاسد
التسوية حتى قال الواثق : « لا والله ما رأيت مثلك ولا سمعت
به » .

والى نفس تلك الدرجة التى ارتقى اليها اسحاق فى العزف
بلغ زرياب فكانت مكاتته لا تسامى فى مثل ما وصل اليه
أستاذه من تفوق .



معاصروه من اعلام الموسيقى والغناء :

ولم يكن زرياب فى نشأته وثقافته بمعزل عن سائر معاصريه
من اعلام الموسيقى والغناء ممن امتلأت بهم مجالس بغداد . فلم
يقتصر فى دراساته وتعلمه على ما كان يفيد من أستاذه ابراهيم
الموصلى وابنه اسحاق ، بل كان كالنحلة التى لا تترك زهرة
استهوتها حتى تنجذب اليها ، ناهلة من رحيقها ، متنقلة بين
رياضها .

وبينما كان ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق من أنصار القديم
شعراً وموسيقى ومن المتعصبين لأسلوب المدرسة القديمة فيهما ،
يبدلان غاية الجهد فى الدفاع عن مذهبهما هذا فى مجالس الخلفاء
وخارجها من المجالس العامة ، ولهما فى هذا الاتجاه أنصار
وأتباع ، كان يعارض تلك المدرسة مذهب المجددين وعماده

ابراهيم بن المهدي أخو الرشيد ، ويعد في الطليعة الأولى من
أعلام الغناء في العصر العباسي الذهبي ، يجيد العزف بالآلات
الوترية والزامير والدفوف ، فكان من أحذق الناس بفنون
الموسيقى علما وأداء ، وأطبعهم في الغناء ، وأحسنهم صوتا .
ولم يستكن ابراهيم للفن القديم ولم يشأ أن يحتذى في صنعة
الأساليب الغنائية الموروثة ، بل كان من رأيه — وقد وجد
العصر العباسي جديداً في كل شيء يتعلق بحضارته ودراساته من
علوم وفنون ، ألا يقف دولاب الغناء في هذه الدولة التقدمية
المتطورة عند الخطوط الأولى التي كان يترسمها المغنون في الجاهلية
وصدر الاسلام وعصر بني أمية وبداية عصر العباسيين . فتزعم
في الموسيقى والغناء مذهب التجديد ، وقام بثورة فنية غير
هياب ولا مرتاب . وكان يمقت في الفن التقليد ، كما كان يكره
فيه التكلف والتعقيد . إنما يدين بأخذ الفن من أيسر مناهله
وأقربها الى النفس ، فكان يحذف نغم الأغاني الكثيرة العمل
حذفاً ويخففها ليسهل أدائها . ثم اندفع في التجديد فقام بخطوة
أخرى هي مزج الألحان العربية بالألحان فارسية ليخرج منها لونا
جديداً . فان عيب عليه ذلك قال : « أنا ملك وابن ملك أغنى
كما أشتهى وأعمل على ما ألتذ » . وكان يقول انه يجندر صنعة
الألحان ، أي يصقلها ويحسنها ، وانه يغنى تطربا لا تكسبا ،
وانه يغنى لنفسه لا للناس .

ويتبع هذا المذهب كثيرون من الأنصار والمؤيدين ، كان
في مقدمتهم غمارق ويحيى المكي ، وابن جامع وغيرهم من أعلام

مغنى الدولة العباسية ، بل لقد وجد هذا المذهب قبولا من الكثيرين لجدته ويسر تناوله على الناس وبعده عن التكلف والتعقيد الفنى فضلا عن مسايرته لطبيعة الحياة فى تطورها وعدم الجمود بقاقلتها التى ينبغى ألا تتوقف عن المسير .

فهل كان زرياب بعيداً عن هذه المدرسة ؟

كلا ، ان زرياب الطموح المجدد لم يكن بعيداً عن هذا التطور ، ولم يكن له بد من أن يلم بالمدرسة القليلة التى ينبغى أن تكون مصدر تعليمه الأول اذ لا جديد الا بعد حفظ القديم والالمام بالتراث الأول . وقد أخذ زرياب بأسباب تلك المعرفة من أستاذه ابراهيم الموصلى واسحاق : فلما استوى على مكانه ورسخت قدمه أمكنه أن يجارى النهضة الجديدة . وسرى فيما بعد أنه سيكون من أكثر دعائها وناشرى مبادئها فى داخل بلاد العرب وخارجها .

وهناك ناحية أخرى كان لها أثر هام فى حياة زرياب ونشأته الفنية ، وهى ليست بعيدة أيضا عن ميدان التطور والتجديد . تلك هى وجود « منصور زلزل » وقد ظهر فى نهاية القرن الثامن الميلادى . وكان أشهر من ضرب بالعود فى الدولة العباسية . وقد عاصر ابراهيم الموصلى ، وتمتع بمكانة فنية قلما أتاحت لغيره وبقي اسمه خالداً على الزمن . وحسبه أن يكون أستاذ اسحاق الموصلى فقد ظل يتردد عليه يوميا حتى مهر مثله فى العزف بالعود وتفوق على سائر معاصريه .

وقد قام زلزل بضبط مواقع النغم على دساتين العود .
(والدستان موضع عقق الأصبع على الوتر) . واستحدث في ذلك
مواضع جديدة نسبت إليه ، فخلدت اسمه ، حيث سميت
أحدى تلك النغمات « وسطى زلزل » ، وابتكر في المقامات
العربية مقاما جديداً نسب إليه وما يزال ذائع الاستعمال في بلاد
العراق وهو مقام « المنصوري » نسبة الى اسمه منصور
زلزل .

ولم يقف مجهود زلزل على تحقيق نغمات السلم الموسيقى
العربي والدقة البارعة في أدائها ، بل امتدت بحوثه الى تحسين
صناعة العود وابتكار نوع جديد فيه ، فكان أول من أحدث
العيدان « الشبايط » التي وصفها اسحاق الموصلي فقال انها
كانت عجا من العجب . وسيت بالشبايط نسبة — في شكلها —
الى نوع من السمك دقيق الذنب ، عريض الوسط ، نين
الملس ، صغير الرأس .

ولم يزل زلزل هذا في تحسين آلة العود وابتكار الكثير من
نواحي التجديد فيها غير زرياب . ولا شك في أن زرياب الصغير
قد أفاد كثيراً من زلزل ومن عبقرية زلزل .

وهذا الانبعاث الذي نهض به زلزل في التجديد والابتكار
وضبط دساتين العود ومواضع عقق نغمات السلم الموسيقى
العربي ، كان يمكن أن يتوقف مسيره لو لم يقيض الله له عبقرية
زرياب لتحمل هذه الرسالة ، وتنميتها وتطورها ، حتى يقترن

جاسمه تحسين صناعة العود والتجديد فيه بما أوضحنا بعضه فيما سبق ، وسنستكمله فيما يلي من الكتاب .



انعكاس حالة بغداد العلمية والاجتماعية :

وكما انعكست هذه الصور الموسيقية المختلفة على لوحة قلب هذا الفتى العبقري ، كذلك تلقت نفسه تلك الصور الزاهية والتي كان يراها حين يصبح ويمسي فيجد أمامه بغداد حاضرة الدنيا وزهرة المشرق بما امتلأت به من أسباب المدنية الزاهرة . فما كادت تتقدم به السن حتى أحس أن مدينته التي احتوت قرابة مليونين من السكان هي أكبر مركز لمختلف الثقافات ، وقد أحرز خلفاؤها السيادة على العالم الاسلامي شرقا وغربا ، ونشروا حضارتهم في جميع الآفاق وسائر الأرجاء . ووجد أن مدينة بغداد قد أصبحت مطلع شمس العلوم ومشرق نور العرفان بفضل ما ازدهر فيها من علوم وفنون وما ترجم بها من الكتب اليونانية والفارسية والهندية ، وما نقل الى لغتها من سائر علوم الأمم المختلفة ... وجدها وقد أصبحت مركز البعوث العلمية الى القسطنطينية والاسكندرية وغيرها .

وفق هذا وذاك وجد الترف الطاغى والثراء العريض والنعمة الوارفة والاسراف الذي كانت تعيش فيه طبقة المترفين كما رأى أمامه حرمان رجال الدين وشيوخ التصوف والتزهدين وطوائف العباد .

هذه صور بغداد ، متعة الأنظار ، وبهجة القصاد والزوار ،
ومنتدى عشاق اللهو ... والبغیضة الى أهل الورع من حفاظ
الحديث والفقه والساہرین بین التہجد والتلاوة والذکر .

صور تتلألأ أمامه فی بغداد عند تلك المجالس المزدحمة
بالجوارى والقیان فی أكبر مظاهر الحسن والتظرف ..

لقد انطبعت صور هذا الجو الملىء بطرائف الجمال من
دراسات التراث العربی والدينى .

تلك التيارات القوية المتناقضة ، فی صور متلاحقة متنوعة
متضاربة انطبعت جميعها على صفحات قلب هذا الفتى الناشئ ..

ولكن عبقریته الوثابة ، وروحہ الطموح ، واستعدادہ
القوى للنبوغ الذى لا يعرف حدوداً ولا يعترف بالحواجز
والعقبات ... كل ذلك ضمن لكفايته القدرة على اختزان جميع
هذه المعانى فی عقله الباطن لتخرجها فيما بعد فی صور أروع
وأجمل .

الفصل الثالث

في حضرة الرشيد

- في حضرة الرشيد ...
- فقد تنزه عنه الفنان ...
- اعتزام الرحيل ...

في حضرة الرشيد

تحدثنا عما كان ينعم به خلفاء بني العباس في قصورهم من الترف والرفاهية وما كان يتوافر في مجالسهم من بدائع الفن وتبادل الطرائف . من النوادر والقصص والرواية ومأثور الشعر ومروى الأدب . ولا شك في أن مجلس الرشيد كان هو القمة التي يطمح الى بلوغها كل فاه متفوق يرى نفسه متفردا في علمه وفنه . فقد اجتمع في بلاطه من عباقرة الموسيقيين وأعلام الغناء ما لم يجتمع لخليفة قبله أو بعده ، وبحسبه أن يضم مجلسه من هؤلاء أمثال ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ويحيى المكي وابن جامع وزلزل ومخارق ومن المغنيات أمثال بذل ومتيم الهاشمية ودنانير وشارية ثم أخت الرشيد عثية بنت المهدي وأخوها ابراهيم .

وقد كانت الأقدار رحيمة حين هيأت لزياب الموسيقى الشاب طريق الوصول الى هذه القمة الرفيعة من بلاط الرشيد . وهو الذي نشأ تلميذا لابراهيم الموصلي ثم لابنه اسحاق من بعده فحفظ عنهما أساليب الغناء وأسرار التلحين . وأصبح صنو أستاذه اسحاق عالما فقيها ، وشاعرا مجيدا ، وأديبا أريبا ، وتديما جم الظرف حلو الشمائل ، وجليسا لطيف المعاشرة رقيق الحاشية ، وراوي يروي أخبار القدامى والمحدثين .

وإذا كانت المراجع التاريخية لم تكلف نفسها الجهد في تحديد سن زرياب ولا تسجيل الوقت الذي وطئت فيه قدم هذا الفنان بساط الرشيد ، فقد استطعنا أن نصل الى ما يقرب لنا هذا التحديد عن طريق المقارنات والموازفات التاريخية التي تمكنا أن نستجمعها من أطوار حياته وأسفاره ورحلاته ، بحيث يمكننا القول ان ذهابه الى الرشيد كان فيما بين عامي ١٨٥ هـ - ١٩٠ هـ (٨٠١ م - ٨٠٦ م) وان زرياب كان يومئذ فيما بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره .

ونبحث عن زرياب في نشأته وفي طفولته ، ونقّب عن حوادث وظروف هذه النشأة كيف كانت على وجه واضح يشبع نهم البحث فلا نلتقي به الا في أوج نضجه في مجلس الرشيد مع أستاذه اسحاق الذي كان في غفلة من أمره وأمر تلميذه ، حين سأله الخليفة يوماً أن يحضر اليه مغنياً جديداً حسن الصنعة على سبيل التنويع والتغيير ، فاندفع اسحاق في ذكر زرياب والثناء عليه ، وامتدح مقدرته ونبوغه . فاستلعا الرشيد اليه ، وراح يستفسره ويمتحنه . فوجد فيه فصاحة المنطق وحضور البادرة وسرعة الاجابة في غير تردد ولا تهيّب . وسأله عن شأنه في الغناء فقال : « أحسن منه ما يحسنه الناس ، وأكثر ما أحسنه مما لا يحسنونه ولا يحسن الا عندك ولا يدخر الا لك ، فان أذن غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك » . فاستدعى له الرشيد بعود اسحاق . فأبى زرياب وقال : « لى عود نحتة ييدى ، وأرهفته بإحكامى ، .. ولا أرتضى غيره » . فأمر الرشيد بإحضار ذلك

العود فوجده لا يختلف في منظره عن عود اسحاق . فقال له :
« ما منعك أن تستعمل عود أستاذك ؟ » . فأجاب زرياب :
« ان كان مولاي يرغب في غناء أستاذي غنيته بعوده ، وان كان
يرغب في غنائى فلا بد لى من عودى » . فقال الرشيد :
« ما أراهما الا واحدا » . فأجاب زرياب : « صدقت يا مولاي ،
ولا يؤدى النظر غير ذلك . ولكن عودى وان كان فى قدر حجم
عوده ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ،
وأوتارى من حرير لم يغسل بماء سخن يكسبها أنوثة ورخاوة ،
وبمها ومثلثها ^١ اتخذتهما من مصران شبل فلها فى الترنم والصفاء
والجھارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ،
ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب ما ليس لغيرها »
فأعجب الرشيد ببراعة وصفه ، وأمره بالغناء ، فاندفع
يعنى :

يا أيها الملك الميمون طائره
هارون راح اليك الناس وابتكروا

فقال الرشيد لاسحاق بعد أن استولى عليه الطرب وتمكن
منه الاعجاب : « لولا أثنى أعلم من صدقك على كتمانك اياك
لما عنده وتصديقى لك من أنك لم تسمعه قبل لأنزلت بك
العقوبة لتركك اعلامى بشأنه ، فخذة اليك واعتن به حتى أفرغ
له فان لى فيه نظرا » .

(١) البم والمثلث : وتران من أوتار العود .

ويتضح لنا من هذه القصة ما امتاز به زرياب من لباقة وحسن اجابة . فقد صدق الخليفة في حكمه أن كلا العودين لا يختلف أحدهما عن الآخر ، وأقام الدليل على صدقه بأز العين لا ترى فرقاً بينهما إذ أنهما في حجم واحد ومن جنس خشب واحد . ثم يكشف بعد ذلك في أدب جم عن الأوصاف التي يمتاز بها عوده في خفة وزنه ومغايرة أوتاره . وقبل ذلك يجيب زرياب الخليفة في تلطف جميل بقوله : « ما لم تسمعه أذن قبلك » . وكان يستطيع أن يقول « ما لم تسمعه أذنك قبل اليوم » . ولو قد سلك في خطابه هذه المجابهة لأضاع على نفسه رضا الخليفة عنه وأعجابه بنبوغه . ولكن زرياب الشاب عرف كيف يختار التعبير اللائق ، كما عرف كيف يقدم من فنه ألواناً لم يعرفها أستاذه من قبل .



ومع هذا فاننا لا نغنى زرياب من الملامة والعتب . فقد تسبب في إثارة أستاذه بانطوائه على نفسه وكمائه ثمار عبقريته ، بما تسبب عنه حقد أستاذه عليه . ولعل زرياب كان يخشى أن يتنكر نسحاق لهذا الذي استحدثه ، سيما وأنه لم يغب عنه علم تلك المعارك الجدلية التي لم تكن تهدأ أو تتوقف لحظة بين القديم من مذهب أستاذه والجديد من مذهب معارضه ابراهيم ابن المهدي . ولكن هذا كله غير كاف في الاعتذار له .

وكان جديراً به أن يبرهن على أنه الفنان البار والتلميذ

الوفى لأستاذه اسحاق ولأبيه ابراهيم من قبل . فلولاهما ما كان
في مقدوره وهو الحدث المحتاج الى العون أن يتخطى كل تلك
الدرجات وأن يبلغ هذا الشأ . ولولا اسحاق ما كان في
استطاعته أن يحظى بالمثل أمام الخليفة . وكان عليه حين أكرمه
أستاذه وشرّفه بهذه المكانة أن يطلعه على ما وصل اليه من
ابداع وابتكار وما يعتزم عرضه واظهاره في حضرة الرشيد .
وعلى فرض أنه اذا لم يبلغ في ذلك قبول أستاذه ، فلم يكن
يضيره ، وهو الصغير الناشئ أن يؤجل عرض مبتكراته الى
فرص آتية . ولكن هكذا شاء القدر ...



حقد تنزّه عنه الفنان

ولكن لم يلبث الحسد أن دب في صدر اسحاق . فما أن
خلا بزرياب بعد ذلك حتى قال له :
« ان الحسد أقدم الأدواء ، والدنيا فتاة ، والشركة في
الصناعة عداوة ، ولا حيلة في حسمها . وقد مكرت بي فيما
انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك . وقصدت منفعتك فاذا
أنا قد أتيت نفسي من مكنها بادنائك . وعن قليل تسقط
منزلتى وترتقى أنت فوقى . وهذا ما لا أصاحبك عليه ، ولو
أفك ولدى . ولولا رعى لئمة ترييتك لما قدمت شيئا على أن
أذهب نفسك وليكن في ذلك ما كان ، فتخير في اثنتين لا بد
لك منهما : اما أن تذهب عنى في الأرض العريضة لا أسمع لك
خبرا بعد أن تعطينى على ذلك الإيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك

بما أردت من مال وغيره ، وأما أن تقيم على كرهى ورغى
مستهدفاً لسهامى فانى لا أبقى عليك ولا أدع اغتيالك ، باذلاً
فى ذلك بدنى ومالى . فاقض قضاءك . » .

ان اسحاق قد نال من المكانة الفنية أرفعها ، وبلغ من المجد
الفنى قمته ، فعند غنائه يسكت كل صوت ، وإلى فنه ينتهى
كل تقدير واعجاب . فقلوله مسموع ، وكلمته نافذة . وهو فوق
ذلك كله النديم المقرب والأنىس المحب والجليس المدلل والفنان
المقدم . وقد وسع الله عليه وعلى آييه فى الرزق ، ويسر له
الأموال بلا عد ولا احصاء . فكيف ضاق صدره بتلميذه ،
وهو صنعه وثمره غرسه !!! .

حقاً انه لعجيب من اسحاق وهو صاحب الثقافت كلها
والمعرفة الأكيدة بسائر العلوم قديمها وحديثها ، والدراية التامة
بجميع أنواعها فى مختلف عصور تطورها ...

اسحاق الذى كانت ألحانه معجزة عصره ، يتهيب أداءها
أعلام المغنين ، حتى وصفها مخارق أحذق مغنى فى ذلك العصر
بقوله :

« ان ألحانه بمنزلة طريق ضيق وعر صعب المرتقى ، أحد
جانبى الطريق حرف الجبل وعن جانبه الآخر الوادى . فان مال
مرتقيه عن محبته الى جانب الوادى هوى ، وان مال الى الجانب
الآخر نطحه حرف الجبل فتكسر » ...

اسحاق الذى كان يتهيه جميع المغنين فى حضرة الخلفاء
لتفوقه عليهم فى صنعه وتفرده فى طرائق الأداء بطابع تميز به

غناؤه حتى قال عنه زرزور ، وكان أحسن من اسحاق صوتا :
« كنا والله نحضر معه فنجتهد في الغناء ، ونظن أنا قد
غلبناه فإذا غنى عجل في غنائه أشياء من مداراته وحذقه ولطفه
حتى يسقطنا ، ويقبل عليه الخليفة دوتنا ، ونرى أنفسنا اضطرارا
دونه » ...

اسحاق الذي ورث عن والده — وكان الموسيقار الأول في
بغداد — تراثا من الأغاني آثره به وحده ، وضمن به على الجميع
ليكون ذخيرة تؤمن اسحاق من منافسة المعاصرين أمام
الخلفاء ...

اسحاق الذي كان يتحدى في حضرة الرشيد أمير أعلام
الغناء وفي مقدمتهم إبراهيم بن المهدي زعيم المدرسة الحديثة
في الغناء وأخو الرشيد ...

اسحق الذي لم تستطع مهرة العازفين التفوق عليه حتى
في شيخوخته بعد أن تقدمت به السن وأعفاه الخليفة الواثق من
العزف ، فاستطاع هو أن يتحدى أمير عازف في زمانه وضرب
على عود أفسدوا تسوية أوتاره فلم يخرج عن لحنه في موضع
واحد ...

ما لاسحاق هذا يتضاءل ، وهو في قمة مجده ، وينهار أمام
شاب ناشئ يتحداه ويتحدى عوده !!.. وتضيق دنيا بغداد
أمام عيني اسحاق عن أن يتسع أفقها له ولتلميذه الشاب فيطلب
إليه الرحيل منها ، وينذره بالقتل ان لم يفعل ، فيؤثر زرياب
الحياة بنأى عن المكابدة والحسد ويختار الرحلة عن بغداد . ولو

أنه بقى فيها لازداد به اسحاق رفعة وعلو مكانة . ذلك لأن الأستاذ الحقيقى يحب بملء قلبه أن يرى بين تلاميذه من يفوقه ، لأنه يكون امتداداً لفنه ، وتخليداً لتاريخه ، بأنه هو الذى أثمر هذا الاتساج .

وفى هذه المأساة المبكية عبر وحقائق ذات شأن . فها نحن نرى اسحاق بعد أن ظن نفسه قد ملك الدنيا بما بلغه فى فنه حتى سما فيه على جميع معاصريه ، ... واذا بتلميذه الشاب الأسود يختفى وينطوى على نفسه ، فيبتكر ويخترع فى صناعة آلة العود وفى أوتارها ويبرع فى ابتكار الألحان واختيار الأشعار المناسبة . ثم هو لا يعلم ذلك كله حتى يفاجأ به كفضاءات القدر بين يدى الرشيد ، فيدب فى نفسه ما يشبه الحمى القاتلة غيظاً وكمداً . وكأن هذه الحقيقة تقول لكل فنان ولكل عالم :

كن طريقاً الى غيرك ، ودع الدنيا تسير قوافلها الى الأمام .

ثم لا تغتر بموهبتك ، فقد يطالعك زرياب من وراء حجاب ..

وان الأناية ومحاولة كبت المواهب ، وستر أشعة الكواكب ،

لا تغنى شيئاً عن الحاقدين . بل هى أبلغ فى اظهار الموهوبين

واعلاء مكانة النابغين .



ويمضى اسحاق فى الكيد لتلميذه .. فما كاد الرشيد يعود

الى طلب زرياب حتى أجابه اسحاق :

« ومن لى به يا أمير المؤمنين ، ذلك غلام مجنون يزعم أن

الجن تكلمه ، وتطارحه ما يزهى به من غنائه . فما يرى في الدنيا من يعدله . وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين وترك استعادته ، فقدّر التقصير به والتهوين بصناعته ، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه ، مستخفيا عنى . وقد صنع الله تعالى في ذلك لأمر المؤمنين لأنه كان به لم^١ يغشاه ويفرط خبطه فيفزع من رآه .

فسكن الرشيد الى قول اسحاق وقال :

« على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كبير » .

وغريب من اسحاق أن يسلك هذا المسلك ، وهو يعلم أن ما ادعاه على زرياب من أن روحا تتقمصه فتوحى اليه بالألحان لم يكن غريبا على الفنانين في هذا العصر ولا مستبعدا في تخيلاتهم ..

فان ابن جامع الذى كان يعاصر ابراهيم الموصلى وينازعه المقام الفنى الرفيع الى أبعد الحدود ، حتى لقد حكم بينهما « برصوم الزامر » حكم معاصر فنان ، وهو حكم تصويرى شاعرى يضع كلاهما في موضع لا ينتقص فيه من فضله ، فقال حين سئل عنهما :

« الموصلى بستان تجدد فيه الحلو والحامض والطرى الذى لم ينضج ، فتأكل من هذا وذاك . وابن جامع زق عسل ، ان فتحت فمه خرج عسل حلو ، وان فتحت يده خرج عسل حلو ، كله جيد » .

(١) طرف من الجنون .

فهل ابن جامع هذا في حاجة الى ادعاء أن أرواحا تتقمصه فتوحى اليه بالألحان كما أشاع اسحاق عن زرياب حين أراد الالتقاص منه؟.

روت « حولاء » جارية ابن جامع هذا أن مولاهما الفنان استيقظ يوما من نومه فتلفف على ولده هشام وناداه وطلب أن يقبل على عجل بعوده ليسجل لحنا قبل أن ينساه ، وقد حفظه عن رجل من الجن في نومه . فجاء ولده مسرعا ويده العود . فتغنى ابن جامع رَمَلًا لم تسمع الجارية أحسن منه ، وكان ابنه يتابعه . أما ألفاظ اللحن فهي :

أمت رسوم الديار غيرها

هوج الرياح الزعازع العصف

وكل حنانة لها زجل

مثل حنين الروائم الشفف

وأطلق على هذا اللحن بعد ذلك لحن الجن .

وحين قرأنا نحن هذه القصة التخيلية القديمة لم نهل ان ابن جامع كان غريب الأطوار وان أرواحا كانت تتقمصه فتوحى اليه بموسيقاه ، بل فسرنا هذه الرواية على فرض صحتها — بأن الفطرة الغنائية لابن جامع تغلب عليه في يقظته ، وتقض مضجعه اذا نام ، فتتسلسل الأنغام والألحان في عقله الباطن ، وتتمثل له في الرؤيا . فاذا استيقظ كان قد وعاهها وحفظها ... شأن الفنان الحق يلزمه فنه ولا يبارحه ، يستيقظ به ولا ينام عنه . فهو مستيقظ حتى في نومه ...

وفرنى حتى ابراهيم الموصلى والد اسحاق الذى يشيع هذه الشائعات عن تلميذه زرياب اتقاصا لعقليته . ابراهيم هذا كان يدعى أيضا أن له شيطاناً يعلمه ويلهمه ، وما دام لأولئك الشعراء فى الجاهلية شياطين ، وما دامت الجن فى الغيران^١ والكهوف النائبة تلهم القصائد والمعلقات فلم لا يكون لابراهيم واحد من أولئك ، فالشعر والغناء متلازمان منذ قديم الزمان !! . فحين أراد ابراهيم الموصلى أن يزعم أنه هو الذى ابتكر نوع الغناء الماخورى أورد فى ذلك قصة ، بل أسطورة من نسج الخيال ، وخرافة لا يمكن تصديق وقوعها فى عالم الحس والواقع ، وان تناقلتها عنه كثرة من كتب الأدب .

فقد حدث اسحاق عن أبيه ابراهيم قال :

« استأذنت الرشيد أن يهب لى يوماً من أيام الجمعة لأتفرد فيه بجوارى .. واخوانى . فأذن لى فى يوم السبت . وقال : هو يوم أستثقله فإله فيه بما شئت قال (الموصلى) فأقمت يوم السبت بمنزلى وأخذت فى اصلاح طعامى وشرابى بما احتجت اليه . وأمرت البواب أن يغلق الأبواب وألاً يأذن لأحد فى الدخول على . فبينما أنا فى مجلسى ، والحرم قد حففن بى ، اذا أنا بشيخ ذى هيئة وجمال ، عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة ، ويده عكازة معقمة بفضة . وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق . فدخلنى

(١) جمع ، ومفرده غار .

غيظ عظيم لدخوله على . وهممت بطرد بوأبي . فسلم على أحسن سلام ، فرددت عليه ، وأمرته بالجلوس فجلس . وأخذ في أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها ، حتى سكن ما بي من الغضب . وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله على لأدبه وظرفه . فقلت : هل لك فى الطعام ؟ قال : لا حاجة لى فيه . قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك اليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : يا أبا اسحاق ، هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام ؟ فغاضنى قوله . ثم سهلت الأمر على نفسى فأخذت العود فجسسته ، ثم ضربت وغنيت فقال : أحسنت يا ابراهيم . فازددت غيظا . وقلت ما رضى فى دخوله بغير اذن ، واقتراحه على ، حتى سمئانى باسمى ، ولم يجميل مخاطبتى . ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك ؟ قال (ابراهيم) : فتعجبت من قوله . وقلت فى نفسى بم يكافئنى ؟ ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيت ، وقمت به قياما تاما لقوله لى ، أكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدى . ثم قال : أتأذن لعبدك فى الغناء ؟ فقلت : شأئك ، لكنى استضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى . فأخذ العود وجسه . فوالله لقد خلت أن العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده . واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحة من ييعنى

بها كبدأ ليست بذات قروح ؟

أبأها على الناس لا يشترونها

: ومن يشتري ذا علة بصحيح ؟

أئن من الشوق الذي في جوافحي

أفئن غصيصي بالشراب قريح

قال ابراهيم : فوالله لقد ظننت أن الحيطان والأبواب
والسقوف وكل ما في البيت يجيبه ويعنى معه من حسن صوته .
حتى خلت والله أنى أسمع أعضائي ووثياي تجاوبه . وبقيت
مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة ، لما خالط قلبي من اللذة
التي غيبتني عن الوجود . فلما رآني كذلك أخذ العود ثانياً ،
والدفع يعنى :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة

فانى الى أصواتكن حزين

فعدن ، فلما عدن كدن يمتنى

وكسدت بأسرارى لهن أين

وعدن بترداد الهدير كأنما

شرين الحميا أو بهن جنون

فلم تر عيني مثلهن حماماً

بكين ولم تدمع لهن عيون

فكاد عقلى أن يذهب طرباً . ثم غنى :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد

لقد زادنى مسراك وجداً على وجد

أَن هتفت ورقاء في روتق الضحى
 على غصن غض النبات من الرند
 يكيك كما يكي الحزين صباية
 وذبت من الوجد المبرح والجهد
 وقد زعموا أن المحب إذا نأى
 يَملّ وأن النأى يشفى من الوجد
 بكل تداوينا فلم يشف ما بنا
 على أن قرب الدار خير من البعد
 ثم قال : يا ابراهيم ، هذا الغناء الماخورى ، خذه وانح
 نحوه في غنائك ، وعلمه جواريك . فقلت : أعده على .
 فقال : لست بمحتاج قد أخذته وفرغت منه . ثم غاب من بين
 عيني . فارتعت لذلك ، وقمت الى السيف فجردته ، ثم عدوت
 نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة . فقلت للجوارى : أى شيء
 سمعتن عندى ؟ فقلن : سمعنا غناء لم نسمع قط أحسن منه .
 فخرجت متحيرة الى باب الدار ، فوجدته مغلقا . فسألت البواب
 عن الشيخ الذى خرج ، فقال : أى شيخ ؟ والله ما دخل عليك
 اليوم أحد . فرجعت لأتأمل أمرى . فاذا هو قد هتف بى من
 بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحاق أنا أبو مرة
 ابليس . وقد كنت نديك اليوم فلا ترع^١ . فركبت الى الرشيد
 وأخبرته بالحديث . فقال : ويحك ، أعد الأصوات التى أخذتها .
 فأخذت العود وغنيتها كما هى راسخة فى صدرى . فطرب

(١) لا ترع .

الرشيد ، وجلس يشرب ، ولم يكن عزم على الشراب . وقال :
كان الشيخ أعلم بما قال انك قد أخذتها وفرغت منها ، فليته
أمتعنا بنفسه يوما واحداً كما متعك . وأمر لى بصلة . فأخذتها
وانصرفت .

ومن العجب أن يتندر اسحاق عن زرياب بإيحاء الجن له ،
قصداً منه الى تشويه طبيعته والتحقير من شأنه ، بينما هو
ينقل عن أبيه أعجب قصة محبوكة الأطراف طويلة الفصول ،
يذكرها على سبيل المباهاة ، وهي جديرة بالسخرية من ناقلها
ومدعيها والمصدق لها . وكان حرياً به أن يتخذ من قصة أبيه
ما يعذر به زرياب لو كانت به تلك المنقصة أو كان ممن يدعى
إيحاء الشياطين والهام الجن ليرتفع بفنه الى العالم المجهول .

بل ان الأغرب من كل ما مضى أن اسحاق (وهو يرى في
ذلك أمراً غير طبيعي ما دام فيه انتقاص لتلميذه زرياب) لم
يجد به منقصة حين يروي هو عن نفسه مثل هذه القصص
التخيلية وفي نفس بلاط الرشيد .

فقد جاء في مروج الذهب للمسعودي ، أن اسحاق الموصلي
حدث عن نفسه قال :

« بينا أنا ذات ليلة عند الرشيد أغنيه اذ طرب لغنائى ،
وقال : لا تبرح . ولم أزل أغنيه حتى نام . فأمسكت ، ووضعت
العود من حجرى ، وجلست مكانى . فاذا شاب حسن القد ،
عليه مقطعات خز ، وهيئة جميلة ، فدخل وسلم وجلس . فجعلت
أعجب من دخوله في ذلك الوقت الى ذلك الموضع بغير

استئذان . ثم قلت في نفسي عسى بعض ولد الرشيد ممن
لا نعرفه ولم نره . فضرب ييده على العود ، فأخذه ووضعته في
حجره ، وجسه فرأيت أنه جس أحسن خلق الله . ثم أصلحه
اصلاحاً ما أدرى ما هو . ثم ضرب ضرباً فما سمعت أذن صوت
أجود منه . ثم اندفع يغنى :

ألا عللاني قبل أن تتفرقا

وهات اسقني صرفاً شراباً مسروقاً

فقد كاد ضوء الصبح أن يفضح الدجى

وكاد قميص الليل أن يتمزقاً

ثم وضع العود من حجره وقال : ... اذا غنيت فغن هكذا ،
ثم خرج . فقامت على اثره ، فقلت للحاجب : من الفتى الذى
خرج الساعة ؟ فقال : ما دخل هنا أحد ولا خرج . فقامت
متعجبا ، ورجعت الى مجلسى . واتبه الرشيد ، فقال : ما شأنك ؟
فحدثته بالقصة ، فبقى متعجبا . وقال : لقد صادفت شيطانا .
ثم قال : أعد على الصوت . فأعدته ، فطرب طرباً شديداً ،
وأمر لى بجائزة ، وانصرفت .

ها هو ذا اسحاق ، اذن ، قد نال الجائزة مكافأة على تأليف
قصة وتلحينها واخراجها . وهى في موضوعها ترديد لقصة أييه
وقصة ابن جامع .

ثم هو بعد ذلك يعيب على زرياب ما يعتبره فخراً له ولأبيه
من قبله !!

ويتمادى اسحاق في اذاعة السوء من حول زرياب ،

والطعن على عقليته وفهمه واحاطته بكل كلمة نائية وسمعة سيئة ، بما اضطره أخيراً الى التفكير الجدى فى مغادرة مسقط رأسه وأحب مكان اليه ...



اعتزام الرحيل

والآن نجد أنفسنا أمام سيل متدفق من الأسئلة قد يوجهها إلينا الأدباء أو لعلمهم قد وجهوها بالفعل .

لمَ لم يقابل زرياب الضربة بمثلاً ؟

لمَ لم يقيم فى بغداد على رغم اسحاق الذى اقلب ضده بين عشية وضحاها من أستاذ مشجع الى منافس حقود ؟

لمَ لم يرفع الأمر الى الرشيد بطريقة أو بأخرى ، ويظهر ما يكنّ له أستاذه من الكيد ، وما يضر له فى الخفاء من اغتياله ؟ .

ولو قد فعل ذلك ووقف موقف شجاعة وعدم مبالاة ، اذن لتغير الموقف ولحقق زرياب لنفسه انتصارا يصبح به نجم بغداد غير منازع ، ثم يتوارى اسحاق بدسائسه ومكايدته . بل لمَ أعوزت الحيلة زرياب فلم يطلب مهادنة خصمه الأستاذ ؟

لمَ استجاب بسرعة للرحيل من بغداد ، وارتعد أمام الانذار كلما كان ينتظره ويتوقعه ؟ ولو أنه تريث واستأذن أستاذه فى

البقاء قليلا ، فلعل اسحاق كان قد راجع نفسه فتعود المياه الى مجاريها .

وأخيراً نقول نحن بدورنا :

هل كان من الممكن أن يظل زرياب في بغداد على الرغم من اسحاق ومبكايده وتهديداته ، وعلى الرغم من الدسائس والشائعات التي يطلقها عنه في كل مكان ؟

هل كان من الممكن أن يظل زرياب مستقراً في بغداد ، خصوصاً وقد أصبحت له فيها أسرة من زوجة وأطفال ، فيكتفى بالحياة بعيداً عن البلاط وما يعرض له فيه من مكائد الحاسدين ، قانعا بالعيش مع الشعب ، والغناء للشعب ، ما دام الشعب متعلقا بالغناء مقدراً له ؟ وعلى هذا يكفي نفسه مشقة الرحيل الى بلد مجهول ، الله وحده يعلم ماذا يكون مصيره ومصير أسرته فيه !!.

الجواب أن اقامة زرياب في بغداد بعيداً عن قصور الخلفاء والأمراء وأضواء مجالسهم ومحافلهم ، هذه الاقامة لم يكن في المستطاع أن تتحقق .

ذلك أن ما قدمناه من صور رائعة للبذخ والثراء التي كانت تزخر بها بغداد ، وتلك الحياة المترفة التي كان ينعم بها أهلها ، كانت مقصورة على طبقات الخاصة . فقد كان المال وفيراً والترف والنعيم بالغاً أقصاه في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء . أما الشعب فأكثره بالنسبة فقير .

لهذا كانت أنظار الناس متجهة في عنايتها الى الخلفاء
والأمراء . فاذا التمس العلماء الغنى لم يجدوه الا في التقرب
اليهم . والشعراء ان أرادوا العيش لم يجدوه الا في مديحهم .
والتجار ان وقع شيء ثمين في يدهم من جوهر أو جوار لا يجدون
سوقا لها الا في قصورهم . والصناع اذا أحسنوا صناعة شيء
فاليهم وحدهم يقصدون . أما بقية الشعب فقير بائس ، قل أن
يجد الكفاف .

فالعلماء اذا أبعدوا عن القصور عزاً قوتهم . والشعراء
لا يكتبون القصائد لأنفسهم ولا لعواطفهم وانما ينظمون للمال ،
ومن أجله ينشدون الشعر بين يدي الخلفاء والأمراء وهكذا
أصحاب الفنون وأهل الموسيقى والغناء . وكان أكثر مديح
الخلفاء والأمراء مقصوراً على وصفهم بالجلود والسخاء ، لا بإقامة
العدل بين الناس .

لذا كان بجانب هذا الغنى المفرط والامعان في اللذائذ فقر
مدقع عض بناه كثيرا من العلماء والفلاسفة وأوساط الفنانين
وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفاء ومن اليهم .

حدث المؤرخون أن عبد الوهاب البغدادي المالكي ، وهو
أديب ، شاعر له المصنفات الرائعة في الفقه ، لم يكن في المالكيين
أفقه منه في زمانه ، تضيق به المعيشة في بغداد حتى لا يجد قوت
يومه . ويخرج عنها طالبا للرزق . ولما ودعه أكابرها قال لهم :
« لو وجدت بين ظهرائكم رغيين كل غداة ما عدلت عن
بلدكم » .

ثم أنشد يقول :

سلام على بغداد في كل موطن
وحق لها منى سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها
واني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليّ بأسرها
ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخيل كنت أهوى دنوه
وأخلاقه تنأى به وتخالف

ولما بلغ مصر — على نحو ما رواه ابن خلكان — مات لأول
ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها . فزعموا أنه قال وهو يتقلب :
« لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا » .

وهذا هو أبو علي القالي البغدادي ، صاحب كتاب الأمالي ،
ضاقت به الحال واضطر الى أن يرحل الى أقصى الغرب حتى بلغ
الأندلس . وقد دفعت به الحاجة الى أن يبيع بعض كتبه ، وهي
أعز شيء عنده . فباع نسخته من كتاب الجمهرة وكان كلفا بها .
فاشترها الشريف المرتضى ، فوجد عليها بخط أبي علي :

أنست بها عشرين عاماً وبعتهما
فقد طال وجدى بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعهما
ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصية
صغار عليهم تستهل جفوني

... وهذا الزمخشري يقول :

ومما شجاني أن غر مناقبي
يفتني بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدني
وسارت مسير النيرات رسائلني
وكم من آمال لي وكم من مصنف
أصاب بها ذهني محز المفاصل
غني من الآداب لكنني إذا
نظرت فما في الكف غير الأنامل

وحكى أبو الحيان التوحيدي حادثة اتحار فطيفة قال :

« شاهدنا في هذه الأيام شيخا من أهل العلم ساءت حاله ،
وضاق رزقه ، واشتد تقور الناس عنه ، ومقت معارفه له . فلما
توالى عليه هذا دخل يوما منزله ، ومد جبلا إلى سقف البيت
واختنق به . »

وهكذا لم تكن الفنون لتجد طريقها إلى الرواج إلا في
كنف الخلفاء والأمراء ، ولم يكن الشاعر يعبر في صدق عن
شخصيته أو وجدانه إلا قليلا ، وكذلك الفنان لم يكن يصور
شعوره الخاص إلا قادرا . فكلهم يقصد خليفة أو أميرا يعرض
عليه سلعته من شعر أو فن .

ولذلك اصطبغت الآداب والفنون بلون الاستجداء ، لأن العصر لم يكن عصراً ديمقراطياً ، يستطيع الفنان أن يعيش فيه لنفسه أو لخدمة الشعب ، كما هو الحال فيما تطورت إليه مفاهيم العصور الحديثة ، بل كان عصراً أرسقراطياً لا ينعم فيه سوى الأرسقراطيين من أصحاب القصور وذوى الشأن ومن شاء أن يعيش على موائدهم .

وكذلك كان من العلماء طائفة تعيش على اتصال بالخلفاء والأمراء أو تشغل مناصب الدولة كالخطابة والقضاء وهؤلاء كانوا فى رعد من العيش وعلى جانب من اليسار .

حتى مؤلفات الفنانين فى هذا العصر كان تأليفها — الى المدى الكبير — تنفيذاً لأمر وزير أو أمير أو نحوه . وكان تصدير مثل هذه المصنفات انما هو اشارة بفضل هذا الذى كلفهم التأليف .



ومن هنا كان لا بد لزياب من احدى طريقتين :

اما أن يتحدى أستاذه فيقيم فى بغداد على الرغم منه ، مكتفياً بأن يعيش مع الشعب ، قائماً باليسير من الرزق ، فيظل حياته مغموراً معدماً ، مستهدفاً لجميع أنواع الأذى من خصومه وحاسدى فنه ، ...

واما أن يختار الرحيل الى فضاء الدنيا الواسعة ، معتمداً
على فنه ، وثقته بنفسه ، وإيمانه بالنجاح في أى مكان يحل به ..
والذى يدرك النجاح في أولى خطوات حياته ، في بلاط أعظم
خليفة في عصره ، متحدياً أعلم موسيقار في زمانه ، لن يعدم
وسائل الفوز عند أى خليفة أو حاكم يصل اليه في أى بلد .

واذن فلا مناص من الرحيل ...

* * *

الفصل الرابع

إلى أين الرحيل

- الطريق إلى القيروان •
- قصة القيروان •
- ملوك الأغالة وزرياب •

إلى أين الرحيل

لقد اعتزم زرياب الرحيل من بغداد . ووجب أن يتم ذلك الرحيل والاستعداد له في كتمان وخفاء . ذلك أنه يجري في اتفاق سرى بينه وبين اسحاق ، على ألا يعلم به الرشيد ولا أحد من حاشيته .

كذلك ينبغي أن تكون الرحلة الى بلد ليس للرشيد ، ولا لأحد من أعوانه سلطان عليه ، والا كان كالخارج على دولته فيعرض بذلك لأشد المؤاخذة وأعظم النقمة .

وطبيعي أن يكون البلد الذي يقع الاختيار عليه عربيا ، تطيب له فيه الإقامة هو وأسرته .

فهو اذن دائم التفكير ، يسأل نفسه ويسأل خاصته :

إلى أين الرحيل ؟

ان زرياب ليعلم ، كما يعلم غيره ، من التاريخ الذي ليست وقائعه بعيدة عن العصر الذي يعيش فيه انه على أثر اقراض الدولة الأموية (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م) قد أوقع العباسيون القتل في الأمويين ، ولم ينج منهم سوى عبد الرحمن بن معاوية ابن الخليفة هشام ، فانه فر هاربا الى بلاد الأندلس ، ودعا أهلها الى بيعته ، فبايعوه ، وأسس بها دولة أموية جديدة بقرطبة

تسمى الدولة المروانية ، غير تابعة للدولة العباسية وكان ذلك عام ١٣٩ هـ (٧٥٧ م) ^١ .

ولم تكن بعيدة عن سمع زرياب الأصداء التي يرددها الغادون والرائحون في وصف بلاد الأندلس ، وقد قيل :

« ان لله خص بلاد الأندلس من الربيع ، وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وايبضاض ألوان الانسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطبائع ، وتقوذ الادراك ، واحكام التمدن والاعتماد ، بما حرمة الكثير من الأقطار مما سواها » .

كما قيل فيه : « الأندلس هو خير الأقاليم ، وأعدلها جوا وترابا ، وأعذبها ماء وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا » .

وقيل : « الأندلس شامية في طبيها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملو الفلسفة » .

ووصفه الرازي بقوله :

« بلد الأندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب . وهو

(١) وسنلتقى بعبد الرحمن بن معاوية وبأخبار خلفائه مع زرياب فيما بعد في هذا الكتاب .

عند الحكماء بلذ كريم البقعة ، طيب التربة ، خصب الجنب ،
منبجس الأنهار الغزار والعيون العذاب ، قليل الهوام ذوات
السنوم ، معتدل الهواء والجو والنسيم ، ربيع وخريف ومشتاه
ومصيفه على قدر من الاعتدال وسطة من الحال لا يتولد في
أحدها فصل يتولد منه فيما يتلوه انتقاص ، تتصل فواكه
أكثر الأزمنة وتلدوم متلاحقة غير مفقودة ... » .

فلم لا تكون الرحلة الى الأندلس هذه ؟

ثم ان زرياب يعلم فوق ذلك أن مدينة « القيروان »
عاصمة المغرب الأوسط قد استقل بها الملوك الأغالبة ، حتى لم
يعد لسلطان بنى العباس عليها الا مجرد الصلة الدينية التي
تقتصر على الدعاء لخليفة الاسلام في خطبة الجمعة .

ومدينة القيروان هذه ، في جمال موقعها ، وطيب هوائها ،
وبديع مناظرها كما قيل فيها :

رياضٌ تعشّقها سندس توشّت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدّى ربا لها نظرة فتنت من نظر
واشتهر ملوكها بميلهم للفنون وتشجيع أهلها .

فلم لا تكون الرحلة الى القيروان ؟

وما السبب في هذه الحيرة وما موجبها ، والطريق واحدة
الى كل من القيروان والأندلس ، فيستطيع أن يبدأ بالأولى فاذا
طاب له بها المقام فذاك ، والا فليس ما يحول دون استئناف
المسير الى الأندلس .

وهذا هو الذى عقد العزم عليه ، وهذا هو الذى سيتم .

في الطريق إلى القيروان

لا تكثر بفوات أوقات الصبا

فحسب تنال بغيرهن سمودا

فالدر ينظم عند فقد بحاره

بجميل أجياد الحسان عقودا

بدأ زرياب رحلته سرا من بغداد ، و مر بالشام ومصر .
 واجتاز الصحراء . وقطع المسلك برا وبحرا . ولا مناص من أنه
لقى هو وأسرته وأطفاله الصغار أهوالا غير محتملة ، لم يصفها لنا
زرياب ، ولم يكتبها عنه أحد من معاصريه ، لأن الرحلة كما
ألمعنا إليها بدأت في الخفاء ، واستمرت كذلك حتى تجاوز
مواضع الخطر الذي كان يخشاه من سلطان بني العباس .
واذا لم يكن قد أتيح لنا أن نتلقى وصفا لهذه الرحلة
ومتاعبها ، فاننا نستطيع أن تمثلها في وضوح تام حين نقرأ
هذا الوصف الذي قدمه لنا معاصروه ممن قاموا بمثل رحلته
هذه ، وعانوا مشاق البحر والبر ، وقد مروا بالشام ثم أبحروا
حتى وصلوا إلى مصر ، فأحسوا بالطمأنينة . وطاب للكثيرين
منهم المقام ، كما اكتفى بعضهم بشهور شاهدوا فيها مناظر
النيل ورياض مصر الغناء ، ثم مضوا لسبيلهم ، فقالوا في وصف
تلك الرحلة :

« ثم جدّ بنا السير في البر أياما ، وثأينا عن الأوطان الى
أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من
أحواله وتنافي أحواله ما لا يعبر عنه ولا يبلغ له كنه :

البحر صعب المرام جدا لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه

فكم استقبلنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت إلينا من
شراعه عقبان كواسر ، قد أزعجتها أكف الريح من وكرها ، كما
نبّئت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئا من قوّتها ومكرها .
فسمعنا للجبّال صفيرا ، وللرياح دويّا عظيما وزفيرا ، وتيقنّا
أثّا لا نجد من ذلك الا فضل الله عجيرا وخفيرا . « واذا مسكم
الضر في البحر ضلّ من تدعون الا اياه » ، وأيسنا من الحياة ،
لصوت تلك المواصف والمياه ، فلا حيّا الله ذلك الهول المزعج
ولا يئاه . والموج يصفّق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل
ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد
ويقترّب . وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق .
فتخال الجو يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها . حتى
كاد سطح الأرض يكشف من خلالها ، وعنان السحب يخطف
في استقلالها ، وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها
واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها . وساعت
الظنون ، وتراءت في صورها المنون . والشراع في قراع مع
جيوش الأمواج ، التي أمدّت منها الأفواج بالأفواج ، ونحن
قعود ، كدود على عود ما بين فرادى وأزواج . وقد نبت بنا

من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا . وتوهمنا أنه
ليس في الوجود أغوار ولا فجود ، إلا السماء والماء ، وذلك
السفين ، ومن في قبر جوفه دفين . مع ترقب هجوم العدو ، في
الرواح والعدو لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمر الله
سبحانه من فيها وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب . لا سيما
مالطة الملعونة ، التي يتحقق من خلص من معرفتها أنه أمد
بتأييد الهى ومعوقة . فقد اعترضت في لهوات البحر الشامى
شعبا ، وقل . من ركب فأقلت من كيدها ونجا . فزادنا ذلك
الحذر ، الذى لم يبق ولم يذر . على ما وصفناه من هول البحر
قلقا ، وأجرينا اذ ذاك فى ميدان اللقاء باليد الى التهلكة مطلقا ،
وتشتت أفكارنا فرقا ، وذبنا أسي ونلما وفرقا . اذ البحر وحده
لا كى يقارعه ، ولا قوى يصارعه ، ولا شكل يضارعه .
لا يؤمن على كل حال ، ولا يفرق بين عاطل وحال ، ولا بين أعزل
وشاكى ، ومتباك وباكى :

ثلاثة ليس لها أمان البحر والسلطان والزمان
فكيف قد انضم اليه خوف العدو الغادر الخائن ، والكافر
الخائن ، الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن ،
وان نهى عنه وأخطأ المائن . فرأينا البر وكأنا قبل لم نره ،
وشفيت به أعيننا من المره . وحصل بعد الشدة الفرج ، وشمننا
من السلامة أطيب الأرج . فيا لها من نعمة كشفت عن وجهها
النقاب ، يقل شكرا لها صوم الأجقاب وعشق الرقاب . جعلنا
الله بآياته معتبرين ، وعلى طاعته مصطبرين . ولم نخل فى البر

من معاناة خطوب ، ومداراة وجوه للمتاعب ذات تجهم وقطوب .
فكم جينا منه مهامه قسيحا ، ومسحنا بالخطا منها أثيرا وصفيحا .
وفلينا الفجاج ، وقرأنا من الطرق خطوطا ذات استقامة
واعوجاج ، وقلوب الرقعة من الفرقة في اضطراب وارتجاج ،
وربما عميت على المجتهد الأدلة التي يحصل بها على المذهب
الاحتجاج ، فترى الأنفاس تعثر في زفرة الأشواق ، والأجسام
قد زرت عليها من التعب الأطواق . هذا والليل بصفحة البدر
مرتآب ، وقد شدت رحال وأقتاب ، وزمت ركاب ، ورفعت
أحداج ، وفريت من الدعة بمدية النصب أوداج ، وتساوى في
السير نهار مشرق وليل مقرر أو داج . وأديم التأويب والآساد ،
وحمل الغربة قد أثقل وآد . ثم وصلنا بعد خوض بحار يدهش
فيها الفكر ويحار ، وجوب فياف مجاهل يضل فيها القطا عن
المناهل . الى مصر المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع ،
وشاهدنا كثيرا من محاسنها التي تعجز عن وصفها القوافي
والأسجاع :

انظر الى النيل الذي ظهرت به آيات ربي
فكانه في فيضه دمي وفي الخفقان قلبي
ثم هو اذ يذكر النيل ومحاسن مصر يحس بالحنين الى وطنه
بغداد ومن خلفهم به من أحبة وصحاب ، فينشد :
يا لله قل للنيل عني اتى
لم أشف من ماء النهرات غليلا

وسل الفؤاد فانه لى شاهد
ان كان طرفى بالبكاء بخيلا

يا قلب كم خلّجت ثمّ بشينة
وأظن صبرك أن يكون جميلا

وعلى مثل هذه المشاق والمصاعب تنقل زرياب من قطر الى
قطر ، ومن بلد الى بلد ، حتى دفعتة الشام الى مصر ، ووجهته
مصر الى برقة وليبيا ، ثم الى القيروان .

قصة القيروان

« القيروان » مغرب ، وهو بالفارسية كاران . مدينة تقع في الجنوب من مدينة تونس على مقربة من الساحل . يبلغ عدد سكانها الآن ١٩٠٠٠ نسمة ومعروفة بجامعة النخع ، ومشهورة بصناعة السجاد والجلود . وهي عظمة بتاريخها . فقد عمرت دهرًا طويلًا ، ولم يكن بالمغرب مدينة أجل منها فيما مضى . فقد كانت دار العلم ، يرحل إليها كل راعب في طلبه من المغاربة . كما صنف الكثير من المؤلفات في أخبارها ، وذكر علمائها ومن كان فيها من الزهاد والصالحين ، حتى لقد اشتهرت باسم المدينة المقدسة . وكان حسب الرجل أن ينتمى إليها حتى يعرف بالعلم والأدب .

أسسها عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م في عهد معاوية ابن أبي سفيان لتكون العاصمة الجديدة لولاية إفريقية وقاعدة أمامية للفتوحات العربية في المغرب تتجمع فيها الجيوش وتصدر عنها وتعود إليها ، ولتكون كذلك مركزًا لنشر العروبة والإسلام . وذلك على غرار ما جرت عليه سياسة العرب من إنشاء الكوفة والبصرة في العراق ثم القسطنطينية في مصر .

وقد رأى عقبة في اختيار موقعها أن تكون هذه المدينة

بعيدة عن ساحل البحر تجنبنا لسفن الأسطول البيزنطى ، كما
راعى فى نفس الوقت أن تكون غير متوغلة فى الداخل خشية
البربر . وما زالت فى تقدمها المطرد حتى أصبحت كبرى مدن
المغرب فيما بعد .

وكان أول ما بدأ به عقبة بن نافع فيها بناء المسجد الجامع
ودار الإمامة . وما يروى عنه أنه حين اختط هذا المسجد
تحيّر فى قبلته فبقى مبهوما ، فسمع فى نومه هاتفا يقول : « فى
غد ادخل الجامع فانك تسمع تكبيرا فاتبعه فأى موضع اقتطع
الصوت فهناك القبلة التى رضىها الله للمسلمين بهذه الأرض » .
فلما أصبح سمع الصوت ووضع القبلة واقتدى به بقية
المسلمين .

وتعاقبت خلفاء بنى أمية فى دمشق ، وتغير تبعاً لذلك ولاية
الأقاليم ، فلما كان عهد عبد الملك بن مروان عهد بولاية المغرب
الى حسان بن النعمان الغسانى ، من سلالة الغسانين الذين كان
لهم الملك والحكم فى الشام . وأعد حسان جيشه فى مصر وخرج
منها عام ٧٤ هـ / ٦٩٤ م ليواصل فتح بلاد المغرب . وقد أقام
فى مدينة القيروان بعد أن استتب له الأمر . وقد عنى بتجديد
بناء المسجد وكانت قد خربت البربر ، كما قام بتنظيم الإدارة
والجيش .

ولما آلت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك ، آلت شئون
المغرب الى موسى بن نصير بدلا من حسان بن النعمان ، وكان
ذلك عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م . ففضى موسى على قواعد المقاومة

في افريقية حتى بلغ القيروان عاصمة المغرب . وسار موسى في فتوحاته حتى المغرب الأقصى وتم له فتح بلاد الأندلس . وعاد الى القيروان العاصمة الافريقية في موكب عظيم فبلغها آخر عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م .

وحين تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد الوليد تعرض موسى بن نصير لسخطه ووقع فريسة لغضبه ، وذلك لأسباب كان في مقدمتها سوء معاملة موسى لطارق بن زياد لتنافسهما على فتح الأندلس ، ثم الاستيلاء على كنوز تلك البلاد الغنية وما كان بها من تحف وجواهر وتسليمها للوليد وهو يحتضر ، وقد أثار ذلك حقد سليمان الخليفة الجديد الذي كانت أمنيته أن ينتظر موسى بهذه الكنوز والتحف بعيدا عن الشام ريثما يتولى هو شأن الخلافة فيستقبل عهده بذلك الانتصار وتلك الغنائم .

وقد وقع اختيار سليمان على محمد بن يزيد فولاه افريقية ووصل الى القيروان مقر ولايته عام ٩٧ هـ / ٧١٥ م . واستمرت ولايته حتى وفاة سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز التي تعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ الدولة الأموية عامة .

وقد ولي عمر على بلاد المغرب اسماعيل بن عبد الله الذي جرى في ولايته على حسن السيرة واقامة العدل فكان خير أمير وأصلح وال . وفي مقدمة ما اهتم به دعاء البربر الى الاسلام واستجابتهم جميعا له ، فلم يبق منهم واحد الا وقد اعتنق

الإسلام . وأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز الى المغرب عشرة
من علماء التابعين ، وبفضل جهود هؤلاء وغيرهم تعلم المغاربة
أصول الإسلام ، فقرأوا القرآن وعرفوا اللغة العربية
وأجادوها .

وباتتهاء خلافة عمر بن عبد العزيز (١٠١ هـ / ٧٢٠ م)
اتهى عصر الإصلاح ، وعادت الدولة الأموية تسلك مسلك
الاستبداد بأهل الأمصار . فقد عزل يزيد بن عبد الملك الوالى
الوزع المصلح اسماعيل بن عبد الله وولّى مكانه يزيد بن
أبى مسلم أحد تلاميذ الحجاج ومعاونيه . فما كاد يستقر المقام
بهذا الوالى حتى سار فى سياسته العنيفة سيرة الحجاج ، فعمّ
شره وزادت قسوته ، حتى اغتاله أحد حرسه عندما خرج من
داره لصلاة المغرب . وتبع ذلك عهد من الفتور اضمحلت فيه
الدولة وتغيرت أحوال المغرب ، وكان ذلك ابان نهاية خلافة
بنى أمية وقيام الدولة العباسية .

وكان اضطراب أمور الخلافة فى الشام فرصة مواتية
اتهمزها عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بن نافع ، وكان قد
خرج من الأندلس مع عدد من زعماء جند الشام بعد أن فشلوا
فى أحداث فتنة بها . وسار ابن حبيب فى البحر الى افريقية
واستقر بتونس ، مستغلا أحداث الخلافة الأموية التى كانت
تتعالى تحت ضربات العباسيين . ونجح فى التغلب على افريقية ،
وثبت بها أقدامه حتى تكون مملكة له . يتوارثها الأبناء
والأحفاد من بعده . وتمكن من دخول القيروان عام ١٢٧ هـ /

٧٤٥ م . واستتب الأمر له ورسخت أقدامه في المغرب . ولكن العلاقة بينه وبين العباسيين فترت وسامت الى حد القطيعة بعد خلافة المنصور ١٣٧ هـ / ٧٥٤ - ٧٥٥ م . وأهم أسباب القطيعة اكتفاء ابن حبيب باعلان الولاء الشكلى للخليفة العباسى وامتناعه عن ارسال أموال الخراج السنوية اليه ، مما أدى الى ارتياب العباسيين فى اخلاص عبد الرحمن . وقد اتهم الخوارج بتحالفهم مع بعض قبائل البربر ، وبفضل اعلان الولاء والطاعة الى الخليفة الشرعى أبى جعفر المنصور ، من استخلاص القيروان فى عام ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م . وسرعان ما خلصت البلاد لهؤلاء الخوارج حتى ساروا فيها فساداً وقتلوا زعيمهم عاصم بن جميل « وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع وقتلوا كل من كان من قرش وعذبوا أهلها ، وساموا أهل القيروان سوء العذاب » .

واقصت بلاد المغرب عن الخلافة تماماً . وخلصت الخوارج حتى ساروا فيها فساداً وقتلوا زعيمهم عاصم بن فريقين عرفا بالضرورية والأباضية . فاذا تخلصت القيروان من أحد الفريقين وقعت فى قبضة الآخر .

وحالت مشاغل الخلافة العباسية دون الاسراع بالتدخل فى شئون هؤلاء الخوارج وعندما استعلت الخلافة لهذا التدخل فى المغرب كانت قد قويت شوكة هؤلاء البربر فأمر الخليفة المنصور والى مصر القائد العباسى المشهور محمد بن الأشعث بمبادرة المسير الى المغرب لاختضاعها بعد أن أمدّه بالجيش .

وجمع الأشعث قواته وعسكر بها في الجيزة في أوائل
ذي الحجة عام ١٤٢ هـ / ٧٦٠ م . ثم سار على رأس الجيش
عابراً النيل في الطريق إلى الاسكندرية . ووقعت أولى المعارك
في حدود طرابلس . وبعد قتال عنيف انتصرت جنود الخلافة
وانهزم البربر ، ودخل الأشعث مدينة طرابلس . وتابع المسير
حتى دخل القيروان في جمادى الأولى ١٤٤ هـ / ٧٦١ م . وبذلك
استعادت الخلافة بلاد إفريقية ، ولكن إلى القيروان فقط .
وفجع ابن الأشعث في قهر خصوم الدولة ، واستتب له الأمر
في كل حدود الولاية . ولم تقع حوادث هامة إلى أن سقط
حكم الأشعث فجأة . ولم يكن هذا نتيجة ثورات قام بها
البربر والخوارج ، بل كانت نتيجة لتألب الجند عليه . ففي
عام ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م ثار عليه أحد قواد الجند المصري واسمه
عيسى بن موسى بن عجلان مع عدد من رؤساء الجند وحاصروه
في مدينة القيروان وأجبروه على اعتزال الولاية كلها وذلك
بدعوى عصيانه أمر الخليفة المنصور حين استدعاه إليه فرفض .
ورأى الخليفة حسم الأمر بتولية أحد قواد جيش إفريقية وهو
الأغلب بن سالم التميمي ، وقد توسم فيه الكفاية والمقدرة
على ضبط الأمور فعهد إليه بتلك الولاية ، بعد أن أوصاه بأن
يسير في الرعية سير العدل وأن يحسن سياسة الجند ويعنى
بتحصين مدينة القيروان .

ثم أعلن جماعة من الخوارج برئاسة الحسن بن حرب
المصيان ، وقاموا من تونس في حشد كبير إلى القيروان ،

وخرج اليهم الأغلب . وكان قتالا مريراً لم ينته الى نتيجة حاسمة ، اذ فرّ الحسن عائداً الى تونس فلقى حتفه على أيدي رجال حاميتها . أما الأغلب فقد أصيب في تلك الموقعة بسهم طائش فمات متأثراً بجراحه في شعبان عام ١٥٠ هـ / سبتمبر ٧٦٧ م .

وحين علم الخليفة المنصور بمقتل الأغلب اختار للمغرب رجلاً في مستوى تلك الأحداث الخطيرة وهو عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة من أسرة المهلب التي اشتهرت بحروبها ضد خوارج المشرق . وقد عرف عمر بالشجاعة وسداد الرأي والحكمة حتى لقب بهزار مرّداً (وهي ترجمة لكلمتي ألف رجل بالفارسية) . وكانت شخصيته ، الى جانب شهرة أسرته ، كافية لأن يفرض هذا القائد العظيم نفسه على الجميع ، وقد دخل القيروان في صفر سنة ١٥١ هـ (مارس سنة ٧٦٨ م) واستقامت له فيها الأمور أكثر من ثلاث سنوات . ثم قامت ثورة عارمة عمّت الكثير من نواحي المغرب ، وكان عمادها الخوارج من الضفرية والأباضية . ومع مرور الوقت كانت جموع الثوار تزداد كثرة بمن ينضم اليهم من الطامعين في نهب القيروان ، حتى قيل ان عدد من حاصروها مائة وثلاثون ألفاً . و طال الحصار الى ما يقرب من العام ، حتى نفذت المؤن من المدينة واشتد بأهلها الضيق والغلاء . ثم جاءت الأخبار بمسيرة جيش بعث به الخليفة بقيادة يزيد بن حاتم المهلب للمعاونة في فك حصار مدينة القيروان ، فعزّز على هزار مرد (الآلف رجل)

أن يقال يزيد أخرجه من الخصار على الرغم من أن يزيد كان من أركان عصبيته وأبناء عمومته . وقرر الخروج للقاء أعدائه وهو يقول : « إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب » . وخرج وصار يقاتل حتى قتل في منتصف شهر ذي الحجة سنة ١٥٤ هـ (نوفمبر سنة ٧٧١ م) .

وكان يزيد بن حاتم المهلب مقربا للخليفة ، معروفا بالشجاعة والاقدام بما يفوق قريبه عمر بن حفص . كان يزيد واليا على مصر فعهد اليه المنصور بالمسير إلى المغرب فقام اليها في جيش بلغت عدته ستين ألف رجل من مختلف بلاد المشرق الاسلامي . وبعد مقاومة شديدة استطاع تذليل كل ما صادفه من عقبات حتى دخل مدينة القيروان في جمادى الآخرة سنة ١٥٥ هـ (مايو سنة ٧٧٢ م) . واستتب له الأمر وقضى على العصاة وعلى كل أسباب الفتن والثورات . وساد السلام تلك الولاية أكثر من خمسة عشر عاما ، منذ خلافة المنصور وطوال عهدي المهدي والهادي وبعض خلافة الرشيد . واتسع المجال أمام يزيد للقيام بالأعمال الانشائية في تلك البلاد ، وازدهرت القيروان ، وعم فيها الرخاء وانتظمت اقتصادياتها ورتبت الأسواق فيها ونسقت بحيث خصص لكل نوع من أنواع السلع موضع معين من السوق .

وكان يزيد في جوده وكرمه مضرب الأمثال ، فأصبحت دار الامارة في القيروان ملتقى الشعراء الذين قصدوا اليها من كل مكان ، وكذلك العلماء والفقهاء والقضاة والزهاد ورجال الصلاح

والتقوى . وبذلك احتلت مدينة القيروان مكان الصدارة بين مدن الغرب لا بوصفها العاصمة السياسية للبلاد فحسب بل وبصفتها العاصمة الفكرية ومركز الإشعاع الدينى والثقافة فى البلاد .

وقد دخلت اليها فى هذا الوقت المبكر آراء مذهب مالك ابن ألس الفقهية ، اذ كان مالك فى ذلك الوقت يلقى محاضراته فى مسجد المدينة المنورة ، وكان من بين مستمعيه كثير من طلاب العلم والحجاج والمغاربة والأندلسيين الذين نقلوا ما سمعوه الى بلادهم ، علاوة على هجرة الكثيرين من المشاركة الى المغرب ، فكان ذلك بداية دخول المذهب المالكى الى المغرب . ومن أروع ما قيل فى هذه المناسبة ان يزيد سأل ابن فروخ أحد هؤلاء الفقهاء المعروفين عن دم البراغيث فى الثوب هل تجوز به الصلاة ؟ فأجاب بالجواز ، ولكنه أضاف الى ذلك قوله : « يسألوننا عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التى تسفك .. » .

وتوفى يزيد بن حاتم فى خلافة الرشيد فى رمضان سنة ١٧٠ هـ (فبراير ٧٨٨ م) . فعادت بعد موته اضطرابات الخوارج بعد أن دان الحكم لآل المهلب حوالى ربع قرن . وضارت الأحوال فى إفريقية بين أخذ ورد ، واستقرار واضطراب ، حتى أراد الرشيد أن يضع حدا لهذا العصيان وهذه المشاغبات والثورات فأرسل أحد كبار القواد ممن عرف بحسن بلائه فى خدمة الدولة وهو يقطن بن موسى وعهد الى هرثة بن أعين

بالولاية على المغرب ، فدخل القيروان في ربيع آخر سنة ١٧٩ هـ (يولييه سنة ٧٩٥ م) . واستمرت ولايته لتلك البلاد عامين ونصف عام مرت كلها في أمن وسلام . ولكن هزيمة طلب الى الرشيد اعفاه من تلك الولاية لما رآه من اختلاف أهل افريقية وسوء طاعتهم . فعهد الرشيد بولاية افريقية الى محمد بن مقاتل أحد كبار رجال الدولة وأخيه في الرضاة . ولم يتزد ولاية ابن مقاتل على ثلاث سنوات ، عادت الأحوال بعدها الى الاضطراب ، واختلت شئون الجند . وظل أمر افريقية غير مستقر حتى اضطر محمد بن مقاتل الى الخروج من القيروان .

وتدخل في الأمر ابراهيم بن الأغلب ، وكان في مرتبة كبيرة بين قواد الجيش ، فدخل العاصمة ، وقصد الى المسجد مباشرة « وأعلن من أعلى المنبر أنه أتى لنصرة محمد بن مقاتل والى أمير المؤمنين الشرعى » . وتمكن ابراهيم بن الأغلب من القضاء على كل الثروات وعلى من كانت تحدتهم أنفسهم بالعصيان واثارة الفتن ، فاستقرت الأمور . وقدر الرشيد له حسن بلائه في سبيل حفظ هبة الخلافة في افريقية فعهد اليه بالولاية بدلا من ابن مقاتل . وكان ذلك في شهر جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ . (يولية ٨٠٠ م) .

ملوك الأغلبة وزرياب

كانت ولاية ابراهيم بن الأغلب بداية عهد جديد بالنسبة لافريقية ، اذ توارث أبناؤه من بعده حكم البلاد . وأسسوا أسرة ملكية جديدة في المغرب تدين للخلافة شكلا وتتمتع بالاستقلال فعلا . ويعتبر ابراهيم بن الأغلب مؤسس تلك الدولة الافريقية . وكان والده الأغلب بن سالم من جند مصر الذين دخلوا افريقية في قوات محمد بن الأشعث . وعهد اليه المنصور بولاية افريقية في أواخر سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) . ومات بضربة سهم بعد ذلك بعامين .

وكان ابراهيم حين مات والده لم يتجاوز العاشرة من عمره ، وقد قضى صباه في مصر ، وحصل علومه بالفسطاط . وكان يحضر فقيه مصر الأشهر « الليث بن سعد » ، وقد تنبأ له لما تميز به من الصفات فقال عنه : « ليكونن لهذا الفتى شأن » . وقد وهب له « الليث بن سعد » الفقيه « جلاجل » أم ابنه زيادة الله الذي ستأتي سيرته مع زرياب . وعندما بلغ ابراهيم مبلغ الشباب دخل في جند مصر ، وكان عليه أن يسير الى المغرب مثل والده ، فرحل اليها تاركا أهله . وسرعان ما نراه فيها قائدا من كبار القواد . وبعد أن عهد الرشيد اليه

بولاية افريقية وسخت قدمه وثبت مركزه في البلاد ، حتى انه بعد وفاة الرشيد ترك الأمين افريقية له وأقره على ولايتها .

واذ أن خروج زرياب من بغداد كان في حياة الرشيد أو قبل وفاته (١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) . مما يؤكد استفساره عن زرياب واجابة اسحاق الموصلي له تلك الاجابة التي أخذناه بها ، من وصمه زرياب بالجنون والاختار عن سفره غاضبا ، فان ذلك كله مما يوضح أن قدوم زرياب للقيروان كان في أواخر عهد ابراهيم بن الأغلب وكان زرياب في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره .

وعندما توفي ابراهيم في شهر شوال سنة ١٩٦ هـ . (يولية سنة ٨١٢ م) عهد بالامارة لابنه عبد الله الذي كان واليا على طرابلس . فحضر الى القيروان وقد أخذت له البيعة من أفراد الأسرة ومن كبار القواد دون الحاجة الى موافقة الخليفة .

وتوفي عبد الله في سنة ٢٠١ هـ (٨١٧ م) . ليخلفه أخوه زيادة الله « وبذلك تأكد حكم افريقية للأغالبة وأصبحت ملكية وراثية لا تربطها بالخلافة الا روابط رقيقة » .

ولى زيادة الله بن ابراهيم وكنيته أبو محمد بعد أخيه عبد الله . وكان أبوه ابراهيم بن الأغلب اذا قدم عليه أحد علماء العربية من الأدباء أو الشعراء أصحابهم ابنه زيادة الله وأمرهم بسلامته ، فكان أفضل أهل بيته وأفصحهم لسانا وأكثرهم بياناً ، وكان يعرب كلامه ولا يلحن .

وله في النسب :

بالله لا تقطن بالهجر أقمي
فأنت تملك انطائي واخرامي
صدود طرفك عن طرفي اذا التقيا
مجموعي كأس ارغام واتعاس
لو لم أبصك حمي قلبي ترود به
لم تستبح مهجتي يا أملح الناس

وله أيضا في تفاعلة :

ولابسة ثوب اصفرار بلا جسم
تشم بالفسان الحبيب لمشتهم
تجمع معشوق لذيها وعاشق
فمنو نظريرو اليها وذو شم
سأفنيك أو أفنى عليك تذكرا
لمن أفت عطر منه في الرشف والشم
فقد هجت في قلبي لظي لتذكرى
وعنوائه في مقلتي دمعته تهي
كأنى أدنى حين أدنيك من به
أثرت اشتياقي في عناق وفي ضم

وما كاد زيادة الله يتولى الملك حتى جدد بناء جامع
القيروان بالآجر والرخام ، وبني المحراب كله بالرخام من
أسفله الى أعلاه ، وزانه بنقوش عجية يقول كل من رآها من

أهل المشرق والمغرب انه لم ير مثلها . ويروى أن زيادة الله قال
بعد أن فرغ من تجديد الجامع : « لا أبالي ما قدمت عليه يوم
القيامة وفي صحيفتي أربع حسنات : بنياني المسجد الجامع
بالقيروان ، وبنياني قنطرة أم الربيع ، وبنياني مدينة سوسة ،
وتوليتي أحمد بن أبي محرز قاضي إفريقية » .

ومن شعر زيادة الله ما يروى من أن المأمون كتب إليه أن
يدعو على منابر لعبد الله بن طاهر بن الحسين فأثف من ذلك ،
وأمر بإدخال الرسول عليه ، بعد أن تمكلاً من الشراب ، وحل
شعره ، وفار عظيمة بين يديه في كوائن وقد احمرت عيناه .
فحال الرسول ذلك المنظر ثم قال :

« قد علم أمير المؤمنين طاعتي له ، وطاعة آبائي لأبائه ،
وتهدم سلفي في دعوتهم ، ثم يأمرني الآن بالدعاء لعبد خزاعة ؟
هذا والله أمر لا يكون أبداً » .

ثم مد يده الى كيس الى جانبه فيه ألف دينار فدفعه الى
الرسول ليوصله الى المأمون ، وكانت الدنانير مضروبة باسم
« ادريس الحسني » ليعلمه ما هو عليه من فتنة المغرب ومناضلة
العلويين . وكتب جواب الكتاب وهو سكران في آخره أبيات
منها :

أنا النار في أحجارها مستكنة

فان كنت ممن يقدح الزند فاقدح

أنا الليث يحمى غيله بزئيره .
فان كنت كلباً خان موتك فانبج
أنا البحر في أمواجه وعبابه

فان كنت ممن يسبح البحر فاسبح

فلما صحا ، بعث في طلب الرسول ، ففاته . وكتب كتابا
آخر يتلطف فيه فوصل الكتاب الأول والثاني معا ، فأعرض
الخليفة عن ذكر الأول وجاوبه عن الثاني بما أحب . ولعل سبب
هذا التسامح من قبل المأمون أن زيادة الله كان سباقا بالوفاء
للمأمون ، يضاف الى ذلك ندم زيادة الله على ما كتب أولا .
وللمأمون من عمق التفكير ما يجعله أهلا لمثل هذا التصرف
الحكيم .

وكان زيادة الله على غير ما اعتاد سابقوه الذين كانت
تشغلهم الحروب المتواصلة كما أوضحنا . فاعتاد مجالس الطرب
وحب الغناء . وقد وجد هذا الميل فيه من يغذيه ويزيده شغفا
به وهو زرياب .

فان زرياب منذ نزل عند ملوك الأغالبة ذاع صيته في
جميع ولاية افريقية ولم تنقض السنوات الأولى على اقامته
بالقيروان حتى تحول جزء من هذه المدينة الى منطقة تخصصت
للملاهي والترف ، وكانت القيروان من قبل لا تعرف بغير الزهد
والصلاح والاعراق في الدين . وقد مال بعض أهلها الى المرح
والاشتغال بالموسيقى والغناء والرقص وما اليها من فنون

التسليّة ، وأنفس فریق منهم فی هذه الملاهی وخصّصت لها الدور والمحال العامة ، حتی اتقسمت المدينة الى حیثین متناقضین عرف أحدهما باسم « الحی الزریابی » وعرف الآخر باسم جی « الزهّاد » .

وأصبح هذا الحی الزریابی مجمعا لفنائین ومغنین ، اتخذوا من زریاب مرشداً واماماً ، نذكر منهم مؤنسا المغنی . وقد سأله الملك یوما هل یعلم لحنا من ألحانه لم یسمعه منه ؟ فأجاب : والله یا مولای ما علمت غیر بیت وقد أنسیت أوله . وقال : هاته فغنائه :

.

فقد صرت بعد البین أقنع بالهجر
فكتب الملك الى عبد الله بن الصائغ ، وكان شاعراً مجیداً ،
وصار وزیراً فیما بعد وقال له : بحیاتی الا زدت علیه شیئاً .
فقال ابن الصائغ :

ولی کبد لولا الأسی لتصدعت
وقلب أبی أن یستریح الى الصبر
وقد كنت أخشى هجرهم قبل بینهم
فقد صرت بعد البین أقنع بالهجر
فأعجب الملك ذلك ووقع منه أحسن وقع . وغنی به مؤنس ،
فأمر له بخلع تفیسة وکیس فیہ ألف دینار وفرس بسرّج ولجام
محلّین .

وإذا كان هذا نوع ما يخلع على أحد تلاميذ زرياب من
العطايا والمنع فماذا عساه أن يكون نصيب زرياب منها ؟
الحق أن زرياب عاش هو وأهله في القيروان عيشاً رغداً
وحياة مطمئنة حتى غنى يوماً بحضرة الملك أغنية تمدح فيها
بالسواد في قول عترة :

فان تك أمى غراية من أبناء حام بها عبتنى
فانى لطيف ببيض الطبا وسر العوالي اذا جئتني
ولولا فرارك يوم الوغى لقدتك في الحرب أو قدتنى

فغضب زيادة الله ، وصب عليه جام قهقهته ، وأمر بضربه
ثم أبعاده . وقال له ان وجدتك في شيء من بلدى بعد ثلاثة
أيام ضربت عنقك . فكان لا محيص له أن يترك القيروان كما
ترك بغداد .

ويبدو لنا أن زهو المبدعين والفنانين ، واعجابهم بأنفسهم ،
وغرورهم بمواهبهم ، قد دفع زرياب الى مثل هذا المسلك الذى
كانت له أسوأ العواقب . كما أننا من ناحية أخرى لا نخلو
تصرف زيادة الله من شذوذ قد نستطيع أن نستخلص بعض
نواحيه بما حدث منه في معاملة رسول المأمون ، واستقباله في
حالة شذوذ غير لائق بملك كبير ، وكتابته خطاباً سيئاً باللهجة
ثم يتبعه بخطاب آخر مناقض له .. والذين استبعدوا وقوع
تصرف هذا الملك مع زرياب لو لاحظوا الحالة النفسية السريعة
الاتصال عند هذا الملك ، لم يستكثروا عليه هذا التهميم وهذه

المعاملة النائية لهذا الموسيقى العبقري الذي لم يكن له في
أفريقيا كلها من يماثله أو يدانيه .



وهكذا انتهت اقامة زرياب في القيروان الى تلك الخاتمة
القائمة . ولكن — رب ضارة نافعة — فقد شاءت الأقدار قبل أن
يخبو هذا الصوت الصادح الذي ملأ أرجاء القيروان بحلو
النغم أن ينبعث صدهاء في أرجاء أوسع وأشمل .

ففي تلك اللحظات اليايسة البائسة من لحظات زرياب قدم
الى القيروان منصور المغنى اليهودى مبعوثا اليه من الأندلس
من قبل الحكم الأول ، موجها اليه الدعوة للحضور الى بلاط
قرطبة .

وهكذا توصل الأقدار أمام زرياب نافذة من نوافذ النجاح
في القيروان لتفتح له في عاصمة الأندلس أوسع أبواب الشهرة
وذيوع الصيت ، وليسجل له التاريخ فيها أروع صفحات
الخلود ..

فالى الأندلس

1

■

الفصل الخامس

أضواء الأندلس

● الفنان في قرطبة ...

● حساد وحاقنون ...

أضواء الأندلس

وليس في غيرها بالعيش منتفع
ولا تقوم بحق الأنس صهبا
وكيف لا يذهب الأبصار روقتها
وكل روض بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضة ، والمسك تربتها
والخز روضتها والدر حصبا
وللهواء بها لطف يرق به
من لا يرق وتبدو منه أهواء

هذه هي الأندلس في منطق الشعر وموسيقاه ، مناظرها
وروعة جمالها أما أهلها فما جاء في وصفهم من العرب والبرابرة :
« صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ، وشعورهم
سود مرسلة ، وقلودهم متوسطة معتدلة الى القصر ، وألوانهم
زهر مشربة ، وألسنتهم فصيحة عربية يتخللها اعراب كثير ،
ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء
فتبصرهم في أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة ،
وأنسابهم العربية ظاهرة ... ومواسمهم متوسطة ، وأعيادهم
حسنة مائلة الى الاقتصاد ، والغنى بمدنهم فاش ، وقوتهم الغالب
البر الطيب عامة العام وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة

والبوادي والفيلة في الفلاحة الذرة العربية . وفواكههم اليابسة
متعددة يدخرون العنب سليما من الفساد الى شطر العام ، الى
غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرمان والقسطل
(أبو فروة) والجوز واللوز الى غير ذلك مما ينفد ولا ينقطع
الا مدة . وصرفهم (تقودهم) فضة خالصة وذهب ابريز ...
في شق من تقودهم الفضة « لا اله الا الله » وفي شق « لا غالب
الا الله » . ودينارهم في شق منه « قل اللهم مالك الملك .. الى
بيدك الخير » ، ويستدير به قوله تعالى « والهكم اله واحد
لا اله الا هو الرحمن الرحيم » ، وفي شق اسم الأمير ويستدير
به « لا غالب الا الله » .

« وعادة أهل المدينة البروز في الفحوص بأولادهم وعيالهم
... وحریم حريم جليل ، موصوف بالحسن ، وتنعم الجسوم ،
واسترسال الشعور ، وتقاء الثغور وطيب النشر وخفة الحركات ،
ونبل الكلام ، وحسن المجاورة . وكان يغلب على الحرائر من
النساء الحجاب ، ولكن يتسامح في هذا مع الاماء والسراري ..
واشتهر الأندلسيون بالنظافة ، فكانوا يفضلون الملابس والمأكلا
البسيط على الملابس والمأكلا الفخم اذا كان قدرا . واعتادوا أن
يسيروا في الطرقات ورءوسهم عارية ، الا ما شذ في شيوخهم
وقضاتهم وعلمائهم ممن كانوا يلبسون العمائم . وكان من
عاداتهم أن يلبسوا البياض عند الحداد ..

يقولون البياض لباس حزن
بأندلس فقلت من الصواب

ألم ترني لبست بياض شعري
لأنى قد حزنت على الشباب

« وأهل الأندلس أكثر الناس محافظة على الشعائر الدينية
وقد تأثروا في ذلك بمذهب مالك في الشدة والعصبية . وهم
أكره ما يكونون للتسول ، لا يطيقون رؤية شخص صحيح
الجسم قادراً على العمل وهو يتسول » .

أما قرطبة فكانت أعظم البلاد وسط الأندلس . وليس لها
في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة . وقيل انها تبعد عن
البحر مسيرة خمسة أيام . وكانت مركز العلوم ومنار التقى
يتحلى أهلها بشريف المناقب وجميل الصفات ، وقد قالوا عنهم :
« انهم أعلام البلاد ، وأعيان العباد . ذكروا بصحة المذهب
وطيب المكسب ، وحسن الزى في الملابس والمواكب ، وعلاو
الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل التخصص في المطاعم
والمشارب » .

وسنرى فيما يلي أنه كان لزرياب الفضل الأول في كثير من
كل تلك المناقب والصفات .



كانت الأندلس منذ الفتح ولاية تابعة للخلافة الأموية في
دمشق . وظل الحال كذلك حتى سقطت دولة بني أمية ، وتعقبهم

الخليفة العباس السفاح بالقتل والتشريد وتمكن عبد الرحمن ابن معاوية (حفيد هشام بن عبد الملك) من الهرب الى الأندلس . وانتهاز فرصة الخلاف الواقع بين ولاية العرب فتغلب عليهم ، فبايعه الناس بالامارة . وجعل قرطبة عاصمة ملكه . وقد لقب فيها بعبد الرحمن الداخل ، كما لقب بصقر قرش .. وطالت مدة خلافته (١٣٨ هـ / ٧٥٥ م — ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م) .. فاستطاع أن يؤسس دولة ثابتة الأركان ، يؤيدها جيش قوى ، عرفت باسم « الدولة الأموية في الأندلس » . واهتم بنشر الاسلام والمحافظة عليه ، وأقنعه من التأثير بمنازعات ولاية العرب قبله . كما اهتم بتعليم اللغة العربية لأهل تلك البلاد ونشر ما تضمنته من ثقافة اسلامية .

... وكان عبد الرحمن ومن جاء بعده من أمراء تلك الدولة الأموية وخلفائها مشغوفين بالشعر على مألوف طبيعتهم ، وبالفنون الجميلة بصفة عامة . وكان هو نفسه يقول الشعر بين الحين والحين .

ومن شعره وقد رأى نخلة برصافته في قرطبة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهى في التغرب والنوى

وطول اكتأبى عن بنى "وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلى

... ومن شعره أيضا يتشوق الى أخته في الشام :
أيها الراكب المييم أرضي
أقر منى بعض السلام لبعضي
ان جسمي كما علمت بأرض
وفؤادي ومالكه بأرض
قدّر البين بيننا فافترقنا
وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا
فعمى باجتماعنا سوف يقضى

ولى الملك بعده ولده هشام (١٧٢ هـ / ٧٨٨ م —
١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) وكان أيضا مشغوفًا بالشعر . دخل عليه
رجل في حياة أبيه عبد الرحمن — وهو مرشح للخلافة —
فعرض عليه شراء ضيعة خضبة الأرض ناعمة ثمرة . فأبى
هشام عليه ذلك ، وأطرق قليلا ثم قال :

البذل — لا الجمع — فطرة الكرم
فلا تردى ما لم ترد شيمي
ما أنا من ضيعة وان نعمت ؟

حسبى اصطناع الأحرار بالنعم
ملك الورى ، والعباد قاطبة
— لا ملك بعض الضياع — من همى
تفيض كفى في السلم بحر ندى
وفي سجال الحروب بحر دم

تزل عن راحتى البدور ، وما

تمسك غير الحسام والقلم

وحين تولى هشام الحكم كانت قد ظهرت المذاهب الفقهية بين المسلمين وتحول أهل الأندلس الى مذهب مالك ، حتى لقد اختار هشام جميع القضاة وأصحاب الوظائف الدينية فى دولته من الفقهاء المالكيين . فكان ذلك من عوامل انتشار هذا المذهب وثبوت قدمه فى الأندلس . وكان لهذا المذهب وأصحابه أثر كبير فى توجيه الثقافة الأندلسية بسبب ما اتصف به من عداة لكل تجديد مما أثار الفتن والمنازعات . فقد بلغ من تشدد طائفة من هؤلاء الفقهاء المتزمطين فى قرطبة فى عهد الحكم بن هشام (١٨٠ هـ / ٧٩٦ م — ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) أن دعت الى تحريم الاستماع الى الموسيقى والغناء وبطلان شهادة محترفى هذا الفن ، فلا تقبل شهادة المغنى أو المغنية أو النادية . وأحلت كسر ما يمكن أن يرى مع الناس فى طرقات المدينة من الآلات الموسيقية ، كما أفقت بتحريم الاتجار فى أدواتها . ولم تسمح بأن تباع كتب الموسيقى والأغاني علناً . وكان من أثر ذلك ما رواه ابن خلدون حيث قال :

« حينما كان يموت عالم فى اشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمان عظيم ترسل الى قرطبة ، وان مات موسيقى فى عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته الى اشبيلية التى ولع أهلها بالموسيقى أشد الولع » .

غير أن هذه الحال لم تدم طويلا . فقد غالى هؤلاء الفقهاء

فأفكروا على « الحكم » نفسه اقباله على الصيد ورموه
بالاغراق في اللهو وبالاستهتار والخروج على تعاليم الدين .
وعابوا عليه أنه لا يستشيرهم في تسيير أمور الدولة ، كما
ساءهم أنه لم يكن لهم في نفسه تقدير كبير . حتى لقد حاول
نفر من هؤلاء الفقهاء تأليب الناس عليه ، مما اضطر الحكم
— وكان شديد الحزم — الى اراقة الكثير من الدماء في وقعة
« الربض » الشنعاء ، خشية انتشار تلك الفتنة . وقتل من أهلها
خلقا كثيرا . وصلب ما يزيد على السبعين من هؤلاء الفقهاء
وأتباعهم ، وفي بعض الروايات أكثر من ثلاثمائة .

وكان الحكم فنانا بطبعه ، شاعرا بسليقته ، يحب الموسيقى
والشعر . وكان في بلاطه من أعلام الموسيقى علون وزرقون^(١) .
وهما أول من دخل الأندلس من الموسيقين . وهو الذي أرسل
في طلب زرياب من القيروان . ولكن الحكم توفي والقنان في
الطريق اليه كما سيأتي ذكره فيما بعد .

وقد ورث الحكم ملكة الشعر وعشق الفنون عن أبيه
وجده . ومن شعره بعد أن أخذ ثورة أهل ربض قرطبة :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقما
وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

(١) مما يدل على احتفاظ العرب بمجادهم ما شاهدته في مدينة تونس .
فقد أتلج صدرى أن أرى معهد الموسيقى بها في شارع أطلق عليه : « نهج
زرقون » .

فسائل ثغورى : هل بها الآن ثغرة
أبادرها مستنضى العزم دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجما
كاقحاف شريان الهييد لوامعا
تنبئك أنى لم أكن عن قراعهم
بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا
فانى اذا حادوا جزاعا عن الردى
فلم أك ذا حيد عن الموت جازعا
حيث ذمارى واتهكت ذمارهم
ومن لا يحامى ظلّ خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروينا
سقيتهم سما من الموت فاقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم
فوافوا منايا قد توت ومصارعا
فهاك بلادى اتى قد تركتها
مهادا ولم أترك عليها منازعا
وله فى النسيب :

ظل من فرط حبه مملوكا
ولقد كان قبل ذاك مليكا
ان بكى ، أو شكا الهوى ، زيد ظلما
وبعاداً يدنى حماما وشيكا

تركته جآذر القصر صبباً
مستهماً على الصعيد تريكا
يجعل الخدّ واضعاً فوق ترب
للذى يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلّ في الحب
إذا كان في الهوى مملوكا



وحين تولى الملك خليفته عبد الرحمن الثانى المعروف
بعد الرحمن الأوسط (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م — ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م)
كانت البلاد قد أحكم نظامها ، واطمأنت النفوس واستقرت
الأمور فى نصابها . وتهيأ الجو للتطور بالثقافة الأندلسية وبزوغ
شمس النهضة الموسيقية فى تلك البلاد ، لا سيما وقد عرف
عبد الرحمن بشدة شغفه بالغناء ، كما كان هو نفسه كذلك
شاعرا بالسليقة .

وهنا دقت البشائر ايداناً بقرب وصول الموسيقى العربى
الأول الى العاصمة .



الفنان في قرطبة :

في أواخر عام ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م^١ رحل زرياب من مدينة القيروان في صحبة منصور المغني رسول الحكم اليه قاصدين الأندلس . وقد سارا براً الى أن وصلا ميناء « سويتا » في شمال بلاد المغرب ، وعبرا « بحر الزقاق » الى جبل طارق . وما كادت قدم زرياب تطأ أرض الجزيرة الخضراء حتى بلغه نبأ وفاة الحكم . فاغتم لسوء حظه ونكد طالعه . وهم بالرجوع ، اعتزازا بكرامته غير مبال بما سيعاني هو وأسرته من محنة ، فلم يبق له في شمال افريقية مكان ولا في بغداد مقام .

ولكن منصور رغبه في متابعة الرحلة الى عيد الرحمن ابن الحكم الذي تولى الملك بعد أبيه . وكتب اليه يخبره بقدم زرياب . فجاء كتاب عبد الرحمن يذكر تشوفه للقاءه وسروره بمقدمه . وكتب الى جميع عماله يوصيهم باكرامه ، وأن يحسنوا استقباله ويوصلوه بالتوقير من بلد الى بلد حتى يدخل

(١) ورد في تاج العروس ج ١ ص ٢٨٦ أن تاريخ دخول زرياب الأندلس كان عام ١٣٦ هـ . وعنه أخذ مصححو الأغاني فقد ورد في ج ٤ ص ٣٥٤ (طبعة الدار) ما نصه :

« زرياب هو علي بن نافع المغني مولى المهدي ومعلم ابراهيم الموصلي . صار الى الشام ثم صار الى المغرب ، الى بني أمية ، فقدم الأندلس مع عبد الرحمن الأوسط سنة ١٣٦ هـ فركب بنفسه لتلقيه كما حكاه ابن خلدون » .
وواضح اضطراب هذه الرواية ، فابراهيم الموصلي هو معلم زرياب وليس العكس . كما أن قدومه للأندلس كان عام ٢٠٦ هـ كما أوضحنا وليس عام ١٣٦ كما روى مصححو الأغاني وتاج العروس ..

قرطبة . وأمر غلمانه أن يتلقوه بالركائب وبما عساه أن يكون في حاجة اليه .

ثم خرج عبد الرحمن لاستقباله بنفسه بظاهر المدينة . فدخل زرياب وعياله البلد بليل صيانة لحرمة . وأنزل في دار من أحسن الدور تهيأت له فيها وسائل الراحة وكل ما يحتاج اليه .

وبعد ثلاثة أيام استدعاه عبد الرحمن اليه ، وكان قد كتب له راتباً في كل شهر مائتي دينار ، وأن يجري على أبنائه الأربعة الذين قدموا معه وهم عبد الرحمن وجعفر وعبد الله ويحيى عشرين ديناراً كل شهر لكل واحد منهم . وذلك زيادة عما قرر منحة لزرياب على سبيل التكرمة من الأموال العامة ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار وأن يمنح من هيئة التغذية العامة ثلاثمائة مدي^١ ، ثلاثها شعير وثلاثها قمح . وأقطعه من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار .

فلما استدعاه الخليفة الى مجلسه ، بعد أن أرضاه وطابت نفسه الى المقام وأمن تصاريف الدهر وكيد الكائدين ، بدأ بمجالسته وسماع غنائه ، وقد أذن له بالشراب . فغنى زرياب وجاوب على الشراب بما يفوق الشراب من صنعة ساحرة وفن

(١) المدي : وزان قفل ، مكيل يسع تسعة عشر صاعاً .

مبدع ، مما جعل الخليفة يزداد به تعلقاً وله حبا ، ويؤثره بالحظوة على جميع المغنين ^١ .

وذاكر زرياب الخليفة في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، فكان بحراً لا يدرك مداه ، مما أعجب الخليفة فزاد في تكريمه . واختصه بمجالسته على مائدة طعامه . وبالنسبة في الاعتزاز به ، حتى فتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراد سماعه .

وذكروا هنا أيضاً أن زرياب ادعى أن الجن كانت تتقمصه في نومه كل ليلة وتعلمه ما بين لحن أو وصلة كاملة من الغناء ، فكان يهب من نومه سريعاً ، فيدعو بجارتيه « غزلان » و « هنية » فيأخذان عودهما ويأخذ هو عوده ، فيطارحهما ليلته ثم يكتب الشعر ، ثم يعود عجباً إلى مضجعه .

وفي رأينا أن الرواية على هذا النحو ليست بمستحيلة ولا غير متصورة . فإن الفنان الحق تغلب عليه فطرته في يقظته ، وتقضى مضجعه إذا نام . فتتسلسل الأنغام في عقله الباطن وتتمثل له في الرؤيا . فاذا استيقظ وعامها وحفظها ... وهكذا الفنان يلزمه

(١) يذكرونا هذا بفنان من نوع آخر هو ابن هانيء الأندلسي (٣٢٠ هـ - ٣٦٢ هـ) وإن كان أمر الفنانين يختلف اختلافاً واضحاً . فزرياب موسيقى هاجر من بغداد إلى الأندلس ، وابن هانيء أندلسي هاجر منها إلى القيروان لتكون طريقه إلى مصر . وكلاهما خرج من بلده مضطهداً . غير أن زرياب نال الحظوة عند الأمويين في الأندلس ، أما الثاني فبعد أن أكرمه المعز لدين الله الفاطمي وأقام له قصراً في القيروان راغباً في الإفادة منه عندما يتولى أمر مصر ، ليكون له لسان الدعاية طبقاً لعرف زمانه ، وقد استأذنه ابن هانيء في التأخر عنه قليلاً ، فانه (ابن هانيء) حين بدأ الرحلة من القيروان إلى مصر قتل في برقة بدسيسة أموية خشية أن يقوم في مصر بدعاية شعبية للفاطميين .

فنه ، ويتملكه فلا يبارحه أبداً ، يستيقظ به ولا ينام عنه ، فهو مستيقظ حتى في نومه .

وأياً كان الأمر ، فليست تلك الحال على النحو الذى وصفها به اسحاق للرشيد حين سأله عنه ، من أنه يصاب أحيانا بنوع من الجنون لا يأمن معه مجالسوه على أنفسهم من الفرع والأذى . بل انها حال معقولة يمكن أذ، تتصور وليست كذلك القصة التى رواها اسحاق عن أبيه ابراهيم ومنادمة الجن له وتعليمهم اياه ضرب « الماخورى » مما يبدو رواية طويلة تخيلية من تأليفه وتلحينه واخراجه !!! .

ولم تقف مواهب زرياب عند اجادة الغناء والمهارة فى العزف بل تخطت ذلك الى تحسين صناعة العود ، كما كانت تبشر بذلك فطنته العجيبة التى تجلت حين غنى بين يدي الرشيد . فهو الذى زاد بالاندلس الوتر الخامس فى العود اختراعاً منه ، وكانت من قبل أربعة وفقاً لمقتضيات الصنعة القديمة التى تحتم وجود المناسبة العددية بين أوتار العود الأربعة وبين الطبائع الأربع ، وتقابل بينها ^١ . وقد رأى زرياب ، استكمالاً لمجموعة النغمات

(١) جاء فى مخطوطة « رسالة الكندى فى اجزاء خبرية للموسيقى » التى قام مؤلف هذا الكتاب بتحقيقها والتعليق عليها ، شرح مفصل لمشكلة أوتار العود الأربعة لارباع الفلك ، وارباع الشهر ، وارباع اليوم ، وارباع البروج ، وارباع القمر ، وأركان العناصر ، ومهابء الرياح ، وفصول السنة ، وأركان البدن ، وارباع الأسنان ، وقوى النفس المنبعثة فى البدن وأفعالها الظاهرة فى الحيوان .

وهذه المقابلة كان يلتزمها جميع كتاب العرب وفلاسفتهم فى العصور الوسطى . ولكن زرياب خرج على هذا الالتزام ولم يتقيد به ، بل ساير مقتضيات الموسيقى من ضرورة ايجاد الوتر الخامس حتى تكمل الطبقات الصوتية فى العود . وان التزم فى ذلك ادماج هذا الوتر ضمن هذه الطبائع .

المستخرجة من العود لتستوفي الطبقات الصوتية به ، ضرورة
اضافة وتر الى أوتاره الأربعة القديمة ، فزاد عليها وترا خامسا
صبغه باللون الأحمر ، وجعله متوسطا في موضعه بين الأوتار
الأربعة . وذلك أن « الزير » وهو أكثر أوتار العود حدة كان
يصبغ باللون الأصفر ليكون في العود بمنزلة الصفراء في الجسد .
وصبغ الوتر الثاني بعده باللون الأحمر وهو من العود بمنزلة
الدم من الجسد ، وهو في الغلظ « ضعف الزير » ويسمى
« المثني » . وصبغ الوتر الرابع باللون الأسود وجعل من العود
بمنزلة السوداء من الجسد وسمى « البهم » وهو أغلظ أوتار العود
وأعلاها من حيث الوضع ، وهو ضعف « المثلث » الذي عطل
من الصبغ وترك أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلغم من
الجسد ، وجعل ضعف المثني في الغلظ فلذلك سمي « المثلث » .
فهذه الأوتار الأربعة مقابلة في عرف علماء تلك العصور للطبائع
الأربع ، وتقضى طبائعها بالاعتدال . فيقولون « البهم » حار
يابس يقابل « المثني » وهو حار رطب وعليه تسويته . « الزير »
حار يابس يقابل « المثلث » وهو حار رطب وعليه تسويته .
وهكذا قوبل كل طبع بضده حتى اعتدل واستوى كاستواء
الجسم بأخلاقه .

وأراد زرياب أن يظل في اطار هذا التفكير عندما زاد وتر،
الخامس ، فقال ان أوتار العود الأربعة على النحو الذي جرى
عليه العرف ان سايرت طبائع الجسد فانها عطل من النفس ،
والنفس مقرونة بالدم . لهذا فقد أضاف الوتر الخامس وصبغه

باللون الأحمر أيضا ، وأسماء « النوتر الأوسط الدموى »
ووضعه تحت « المثلث » وفوق « المثنى » ، فاستكمل في عوده
قوى الطبائع الأربع ، وقام النوتر الخامس بينها مقام النفس في
الجسد .

كذلك اخترع زرياب في الأندلس مضراب العود (الريشة)
من قوادم النسر ، وكانت لا تزال حتى وقته من الخشب . وهى
فكرة بارعة من زرياب كان موقفا فيها الى أبعد مدى ، اذ تجمع
الى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة النوتر بملازمة الضرب
عليه .

وما كاد يستقر بزرياب المقام بقرطبة ويعيش فيها حياة
مطمئنة هادئة ، حتى وجه عنايته لسائر الآلات الموسيقية فنقل
الى الأندلس كل ما سبقت معرفته لبلاد المشرق العربى ، ثم
أخذ يفتن فيها ويبتكر حتى توافر للأندلس ثروة من تلك
الآلات لم يعرفه بلد قبله . فقد كان لديهم :

من الآلات الوترية : العود القديم ذو الأوتار الأربعة ، والعود
الكامل ذو الأوتار الخمسة ، والشهرود ، والطنبور ، والقيثارة ،
والمزهر ، والكنارة ، والقانون ، والنزهة ، والصنج ، والشقرة
أو الشقير . ومن الآلات الوترية ذات القوس : الرباب على
اختلاف أنواعها .

ومن آلات النفخ : المزمار ، والسرفا ، والسرفاى ،
والناى ، والشبابة ، واليراع ، والزمار ، والقصبة ، والمقرونة ،

والموصل ، والصفارة . ومن الآلات النحاسية : البوق ،
والنفير .

ومن آلات النقر : الدفوف ، والغربال ، والبندير ،
والصنوج ، والكاسات ، والمصفقات ، والقضيب ، والنقارة ،
والقصعة ، والطبل .

أما العبقريّة الفذة التي جلت عنها موهبة زرياب فهي طريقته
المبتكرة في تعليم الغناء ، تلك الطريقة المستحدثة التي ظلت مثلاً
يحتذى في الشرق والغرب حتى العصور الحديثة .

لقد كان المتبع قبل زرياب في تلقين الألحان أن يكرر المعلم
اللحن لطلابه حتى يحفظوه ، فاستعمل زرياب طريقته الجديدة ،
في تلقين الألحان لتلاميذه . فكان يسلك للوصول الى تلك الغاية
ثلاث مراحل :

الأولى : تعليم الايقاع في قراءة الشعر ، وأن ينقر التلميذ الدف
ليظهر له زمن الايقاع ويضبط الحركات .

الثانية : دراسة اللحن في شكله الساذج .

الثالثة : ترجيع الصوت مع حلية الغناء واظهار العواطف .

أما طريقته في امتحان أصوات تلاميذه قبل البدء في
تعليمهم ، فكان يجلس الطالب على كرسي صغير ويصيح بصوت
عال « يا حجام » أو يغني قائلاً « آه » ويردها ممدودة على جميع
درجات السلم الموسيقي . فان سمع صوته بها صافياً ، فديتاً ،
قوياً مؤدياً ، لا تعثره غنة ولا حبة ولا ضيق نفس ، قرر

صلاحيته للتعليم . مع تقدير درجة صوته من الحسن والجودة والقوة .

فاذا اختار تلاميذه الموهوبين لقنهم الغناء بطرق فنية ، تختلف كل فئة منهم عن غيرها تبعاً لاختلاف طبيعة أصوات أفرادها . فكان اذا بدأ الالتقاء على تلميذ لتعليم الغناء أمره بالعودة على الوساد المدور المعروف بالمسورة ^١ ، وأن يشد صوته جداً اذا كان قوى الصوت . فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوى الصوت ولا يجد متسعا في الجوف عند الخروج على النغم . فان كان ألص ^٢ الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل في فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه .

وكان له في أداء الغناء أسلوب خاص تبعه فيه معاصروه ومن جاءوا بعده من المغنين ، وقد اعتبروا هذا الأسلوب من التقاليد الواجب اتباعها . وذلك بأن يفتح الغناء فيبدأ بالنشيد أول شدوه بأى نقر كان ، ويأتى اثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والأهزاج تبعاً لمراسم زرياب

وأحسب أن زرياب كان أول عربى فكر في تنفيذ التبادل الثقافى وتوجيه البعثات الفنية وفق مفهومنا العصرى حين وجه

(١) المسورة : متكا كالمنبر .

(٢) الألص : المتقارب الأضراس .

عدداً من القيان المغنيات اللائى استدعاهن عبد الرحمن الأوسط
ممن برعن فى هذا الفن بالمدينة ، وجرى اختبارهن فى مواسم
الحج وقد تخرجن على أيدي أعلام الغناء فى الحجاز ودمشق ،
بل منهن من أتمت تلك الدراسات فى بغداد . ثم ابنتى الخليفة
فى قرطبة لهؤلاء الجوارى المشرقيات داراً خاصة أسماها « دار
المدنيات » فكانت أول معهد للموسيقى فى الأندلس ، عميده
زرياب وقد اتخذ من أبنائه وبناته وجواريه أساتذة لمساعدته
على تطوير فن هؤلاء المدنيات بما يحقق نهضة جديدة تناسب
حياة الأندلس . وكان المنهاج الدراسى لهذا المعهد يشمل تعليم
مختلف أنواع العزف ، والغناء ، والتلحين ، والشعر بسائر
عروضه ، والرقص — وكان الاقبال عليه عظيماً — يقصده
الطلاب من كل فج ، العرب وغير العرب ، من الأندلس
وخارجها . مما كان ذا اثر عظيم بالنهوض بفنون الموسيقى
والشعر فى تلك البلاد التى امتد الكثير من فنهما الى أوربا
بما سنخسه بفصل آخر من هذا الكتاب .

وقد انبث أولئك الجوارى المشرقيات والكثيرات ممن تخرجن
فى هذا المعهد يعلمن الأحرار من نساء الأندلس تلك الفنون فى
حشمة ووقار . ولم تكن المرأة الأندلسية أقل شغفا بالغناء من
أختها فى العراق أو الشام ، سيما وأن طبيعة تلك البلاد الساحرة
كانت تضيئ من جمالها ما يدعو الناس الى أسباب الأنىس
والطرب . لذلك سرعان ما وجدنا فى قرطبة من مجالس الغناء
ما لا يقل عظمة وفخامة عن مجالس بغداد ، حتى لقد اشترك فى

أحد تلك المجالس الأندلسية مائتان من المغنين والمغنيات يضربن
بمختلف الآلات من عيذان وطناير ومزامير .

وبلغ من رقة عواطف أهل الأندلس أن أغرموا بالغزل ،
واستعانوا عليه بحلو النغم فكنت تسمع في كثير من الأحيان ،
حين تمر بالليل صوت الغناء وأصداء الموسيقى تنبعث من جوانب
الدور والقصور .

وكثرت مجالس الغناء والطرب والرقص مع مجالس الأدب ،
وتعددت أنواع وألوان تلك المجالس ، فكانت قدوات
لاجتماعات أدبية شعرية غنائية ، تشدو فيها الجوارى المغنيات
بمصاحبة مختلف الآلات . وكان النساء يحضرن تلك المجالس
في أكثر الحالات .

قال ابن حمديس يصف أحد هذه المجالس :

وعدنا الى هالة أطلعت

على قضب البان أقمارها

يرى ملك اللهو فيها الهموم

ثُور فيقتل ثوارها

وقد سكنت حركات الأسى

قيان تحرك أوتارها

فهذي تعاق لي عودها

وتلك تقبل مزارها

وراقصة لقطت رجلها

حساب يد قهرت طارها

وتحول بلاط عبد الرحمن الأوسط من الخشونة الى ترف
قصور الحكام وأصحاب السلطان في المشرق العربي ، وذلك
بتوجيه زرياب وما أشاعه من أفانين الذوق وأساليب الظرف
حتى أطلقوا عليه اسم « فيصل الأناقة في بلاط عبد الرحمن » .
وامتلأت القصور بالجوارى ، وقد اصطفى عبد الرحمن الأوسط
من بينهن جاريته « طروب » فصارت حظيته التي لم يكن يطيق
مغاضبتها . وقد أغضبها يوما فأغلقت حجرتها دونه ، ودون
رسله اليها . ولم ير الى ترضيتها سبيلا الا سدة الباب بيدر
الدراهم من خارجه ، وطلب اليها أن تراجعها على أن تكون
جميع الدراهم لها . فخرجت اليه مكبة على قدميه تقبلهما ،
وأحرزت المال كله . وفيها يقول وقد طالت غيبته عنها في احدى
غزواته :

فقدت الهوى مذ فقدت الحيبا
فما أقطع الليل الا فحيبا
اذا ما بدت لي شمس النها
ر طالعة ذكرتني « طروبا »
ألقى بوجهي سموم الهجير
اذا كاد منه الحصى أن يذوبا
وسرت الى الشرك في جحفل
ملأت الحزون به والسهوبا
أنا ابن هشام ومن غالب
أشب حروبا وأطفئ حروبا

وتألفت الموسيقى في عهد عبد الرحمن الأوسط . وقد
اشتهر أن البلاط وتسيير دفة الأمور فيه كان تحت سلطان
جاريته « طروب » ومغنيه « زرياب » .

ولم يكن أثر زرياب مقصوراً على تطوير الموسيقى والغناء
بالأندلس ، وتجديده فيهما ، وسحر أهلها بحسن صوته وجمال
أدائه واعجاز فنه ، وتبحره فيه ، حتى قيل إن ما حفظه منه
تجاوز الألوف من الألحان والأغاني . بل لقد فتن الناس فوق
هذا كله بآدابه وسعة ثقافته وتنوع معرفته ... كان عالماً
بالنجوم ، وتقويم البلدان وطبائعها ومناخها ، وتشعب بحارها ،
وتصنيف شعوبها .

كما كان لزرياب حظ عظيم من آداب اللياقة ، وضروب
الظرف ، وفنون الأدب ولطف المعاشرة ، وآداب المجالسة وطيب
المنادمة والمحادثة . وكان له من مظاهر الجمال والتألق ما تفرد
به حتى اتخذهُ ملوك أهل الأندلس وخواصهم من الأمراء
والأشراف قدوة فيما سنه لهم . فكانت كلمته عندهم قانوناً ،
ورأيه تشريعاً ودستوراً للجمال والذوق .

فكان له ذوقه الخاص في الملابس ، وسن لهم اختيار الثياب
المناسبة لكل فصل بما يلائم طقس كل منها ، فجعلها متفاوتة
متغيرة . فكان يرتدى الأقمشة الخفيفة ذات الألوان الزاهية
الجميلة في فصل الربيع ، والأثواب البيضاء القضاضة صيفا ،
ومعاطف الفراء والقلائس شتاء . وهكذا كانوا يتنقلون على

مدار الفصول ما بين أبيض وملون ومبطن ومحشو ، وما بين خفائف الثياب حتى صنوف الفراء .

وكان له ذوقه الخاص في تنسيق الموائد وتنظيمها واتخاذ الأكواب من الزجاج الرقيق بدلا من المعادن ، واصطناع الأصص للأزهار من الذهب والفضة . وقد استحسن الناس ذوقه حتى في الأطعمة ، فدلهم على صنوف محبة منها لم تكن الأندلس تدرى شيئا عنها كالنوع المسمى على حد تعبيرهم « النقايا » وهو مصطنع بماء الكزبرى محلى بالسنبوسق^١ . وهو أول من أدخل الى المطعم الاسبانى طعام « الهليون » وهى بقلة لم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ، وقد سموها بلسانهم « الاسفراج » . ومن تلك الأطعمة ما صار الى آخر أيام أهل الأندلس منسوباً اليه ، معروفاً به . والى الآن ينسب نوع من الحلوى اليه فى الشرق يسمونه « زلاية » وهو تحريف عن « زريابية » . وقد اشتهر عنه اقامة الولائم الفخمة وتنسيقها وترتيبها وكان ذلك كله النواة الأولى فى فخامة قصور ملوك الأندلس وبيوت الأغنياء وأناقتهم .

فكان ذوقه فى كل هذا نموذجا احتذاه أهل قرطبة ، وأخذت منذ ذلك الحين الطبقة الأرستقراطية فيها بصفة خاصة وأهلها بصفة عامة يحاكون زرياب ويتخذونه قدوة فيما يفعل .

ومما قلده فيه أهل قرطبة تحديق الشعر وتنظيمه وتصنيفه

(١) نوع من المعجنات المحشوة باللوز والفستق والسكر (يشبه القطائف) .

فانه حين دخل الأندلس كان جميع أهلها من رجال ونساء يرسلون الشعر مفروقا وسط الجبين شاملا للصدغين والحاجبين . فلما رأوا تحديق زرياب هو وولده ونساؤه لشعورهم ، وتقصيرها دون جباههم ، وتسويتها مع حواجبهم ، وتلوينها الى آذانهم ، مالت اليه قلوبهم وقلدوه .

وقد اخترع لهم نوعا من المركبات أسماء « المرتك » . يستعمل لتطبيب الجسم من أثر العرق . وكانت ملوك الأندلس تستعمل قبله ذرور الورد وزهر الریحان وما شاكل ذلك فكان يترك أثرا في ملابسهم ، فدلهم زرياب أيضا على ما يزيل هذا الأثر .

ومما أخذ عنه الناس بالأندلس ابتكاره أنواعا من الفرش اللينة الناعمة بدلا من ملاحف الكتان ، واختياره ستقر الجلد لتقديم الطعام على الموائد الخشبية ، اذ أن آثار الأطعمة تزول عن الجلد بأقل مسحة .

وكانوا ينسبون الى زرياب كل جديد يظهر في قرطبة متصلا بالظرف وبالجمال من ذلك انشاء « حمام زرياب » الذي يعتبر أعجوبة قرطبة من حيث البناء الفخم وما يضمه من معمار عجيب .

وقد أشاع زرياب في الأندلس كلها روح الظرف وألوان الترف والتجديد في كل شيء . ومن ظريف ما صنعه من ذلك تعليم الجوارى كتابة الشعر على أثوابهن وعلى الآلات الموسيقية مما لم يكن لهن به عهد ، وذلك زيادة في التألق والتظرف .

وبقيت هذه العادة حتى بعد وفاة زرياب . وظلت متبعة في قصور العظماء المترفين وتناقلتها الأميرات عن الجوارى حتى امتد ذلك الى « ولادة » بنت الخليفة المستكفي بالله خلفها من مولاة له اسبانية ، وقد أوتيت جمال الصورة وجمال الأدب وجمال الغناء الفائق والصوت الساحر وجمال جميع الحياة من حولها ، وكان قصرها ملتقى للأدباء والشعراء والمغنين وكانت هي شاعرة ، حادة المزاج قاسية صريحة . وقد طرزت بالذهب الخالص على أحد طرفي وشاحها :

أنا والله أصلح للمعالي
وأمشى مشيتي وأتبعه تيهي

وطرزت على الطرف الآخر :

أمكن عاشقي من صحن خدي
وأعطى قبلتي من يشتهيها

وكما تألفت الموسيقى في بلاط عبد الرحمن الأوسط بفضل زرياب ومدرسته تألق كذلك الشعر بما ضم البلاط فيه من شعراء كان في مقدمتهم شاعر القصر يحيى بن الحكم بن الغزال وسنعود للتحديث عنه فيما بعد . وكذلك كان من شعراء البلاط طائفة لم تبلغ فيه مرتبة ابن الغزال وإن كان كثير منهم قد فازوا بالشهرة والذيع ، منهم تمام بن علقمة الذي أنشأ أرجوزة مطولة أتى فيها على تاريخ افتتاح المسلمين للأندلس ، وحسانة التميمية بنت الشاعر أبي الحسين ، وابن عبد ربه صاحب

العقد الفريد ، وكان ما يزال في حداثة سنه . وعباس بن فرناس
الذي قام بأول محاولة للطيران بجناحين من ريش .

وبلغ من اقبال الأسبان المستعمرين في ذلك العصر على
الاهتمام باللغة العربية أن كادت تختفى عندهم اللغة الاسبانية
الأصيلة ، حتى سجل الأسقف « ألبرو القرطبي » استنكاره
لتلك الحالة وشكا مما يراه من تضلع الشبان من أهل بلده في
لغة العرب وشغفهم بالشعر العربي والأغاني العربية ، مفضلين
ذلك على ما بقى ، وكان العرف يجرى به من قبل ، من الاهتمام
بالأدب اللاتيني واللغة اللاتينية .

وبلغ من غرام أهل الأندلس بالشعر في ذلك الحين واقبال
الشعب عليه وانتشار الأغاني باللغة الدارجة وتقدم الموسيقى
وتطورها وطموح الفنانين من الشعراء والموسيقيين أن ظهر
بينهم فن شعبي جديد هو فن الزجل والموشحات . وسنفرد
له بابا خاصا في هذا الكتاب .

على أن ما نريد أن نسجله هنا هو أن زرياب كان عماد
هذه النهضة كلها والدافع اليها والباعث لها .



حساد و حاقدون

أقرب ما في طبائع البشر الأنانية والعقوق والجحود .
الأنانية التي تكره أن تؤمن بعقريّة غيرها ، ولو كان في الإيمان
بها نفعها . والعقوق الذي يعقت الاعتراف بجميل المصلحين .
والجحود الذي لا يطيق العظمة التي توهب لفرد فتميزه عن
سواه ، من أبناء مهنته . حتى اذا مات اعترف الجميع بفضله ،
وسطرت الدنيا ذكراه في صفحات الخلود .

وزرياب من هؤلاء العباقرة الأفذاذ ، فقد ظل طوال حياته
يجد الحساد والحاقدين في كل مكان يحل به . وقد رأينا كيف
كان موقف أستاذه اسحاق الموصلي معه ، وكيف أساء الى
سمعته عند الرشيد فرماه بالغرور وبالجنون ، وبكل تقيصة
يمكن أن تنفر الرشيد منه . ثم رأيناه في القيروان وكيف انتهى
مقامه بها الى وضع مزر مهين اضطره الى مغادرة تلك المدينة
قسرا غير مأسوف عليه .

حتى أنداده من أعلام الموسيقى الذين ترك لهم بغداد كلها
بنعيمها و ثرائها وجميع مميزاتهما ، ورضى هو بالرحيل عنها ،
وبعد أن استقر به المقام في بلد ناء عنهم نراهم ما زالوا يحسدونه
على ما بلغه في غربته من توفيق ونجاح ، وما حازه من مجد
وتقدير في بلاد الأندلس .

ها هو ذا علوية^١ الذي يعد في الصدارة من أعلام الطبقة الأولى في الغناء ببغداد يروى عن نفسه فيقول :

« كنت مع المأمون لما قدم الشام ، فدخلنا دمشق وجعلنا نطوف فيها على أماكن بنى أمية . فدخلنا قصرا مفروشا بالرخام الأخضر ، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها فيسقى بستانا . وفي القصر من الأطييار ما يغنى صوته عن العود والمزمار . فاستحسن المأمون ما رأى وعزم على الصبوح . فدعا بالطعام ، فأكلنا وشربنا . ثم قال لى : غن بأطيب صوت وأطربه . فلم يمر على خاطرى غير هذا الصوت :

لو كان حولى بنى أمية لم

ينطق رجال أراهم فطقوا

فنظر الى مفضبا وقال : عليك لعنة الله وعلى بنى أمية . فعلمت أنى قد أخطأت . فجعلت أعتذر من هفوتى وقلت : « يا أمير المؤمنين أتلومنى أن أذكر موالى بنى أمية ، وهذا زرياب مولاك عندهم بالأندلس يركب فى أكثر من مائة مملوك وفى ملكه ثلثمائة ألف دينار دون الضياع ، وأنا عندكم أموت جوعا » . فغضب عليه المأمون نحو شهر ، رضى بعده عنه .

(١) علوية : هو على بن عبد الله بن سيف ، ويكنى أبا الحسن . من بحسنى صناعة الغناء فى الدولة العباسية . ومن الضراب المجيدين . وكان أعسر (أى أشول) يبدو وضع العود فى يده مقلوب الأوتار بالنسبة للوضع العادى ، وكان أسفل الأوتار أكثرها غلظا وهو « البيم » تعلم الغناء على إبراهيم الموصلى . وتوفى فى زمن المتوكل بعد وفاة إسحاق الموصلى بقليل .

وإذا كان هذا شأن أئداده البعيدين عن منافسته لهم
والخارجين عن دائرة نفوذه فماذا يكون الحال مع هؤلاء الذين
تجمعهم وإياه خدمة البلاط في قرطبة ؟

ما كادت قدم زرياب تطأ أرض الأندلس ، ويكتسب رضا
عبد الرحمن بن الحكم فيبذل له ولأهله من المال والعطايا ما قد
أوضحناه ، ثم يجعل منه النديم المقرب والأئيس صاحب النفوذ
الأول في البلاط حتى غلت مراجل الحقد في قلوب من كانوا
يتمتعون بمثل هذه المنزلة قبل قدوم زرياب ، الذين أضعف
نفوذه ما كان لهم من نفوذ ونزل به ما كان لهم من أقدار .

وفي مقدمة هؤلاء الخصوم يحيى بن حكم المعروف
بالغزال . ويعد من أقوى خصوم زرياب وأقدرهم . ذلك أنه كان
شاعر البلاط المقرب إلى الخلفاء في قرطبة قبل قدوم زرياب
إليها . وهو ابن الأندلس وريث الدولة الأموية فيها إذ كان مولده
عام ١٥٦ هـ / ٧٧٣ م في عهد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)
وعاش باقى إمارته وإمارة هشام وإمارة عبد الرحمن الأوسط ،
ومات في إمارة الأمير محمد عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م وهو ابن
٩٤ سنة .

وكان يحيى شاعرا مجيدا ، ومحدثا لبقا ، وأديبا أريبا ، حتى
وصفوه بأنه حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها . فلا عجب أن
يصطفيه خلفاء الدولة الأموية في قرطبة ليكون شاعر البلاط
للقدم على من سواه . بل لقد كان عبد الرحمن الأوسط يوفده

في سفارات بينه وبين الملوك . وكان شعره مليئا بالحكمة والمعرفة
بطبائع الناس ، فمن شعره قوله :

إذا أُخبرتَ عن رجل برىء

من الآفات ظاهره صحيح

فسلهم عنه هل هو آدمي ؟

فإن قالوا نعم ، فالقول ربح

ولكن بعضنا أهل استتار

وعند الله أجمعنا جريح

ومن انعام خالقنا علينا

بأن ذنوبنا ليست تفوح

فلو باحت لأصبحنا هروبا

بواد بالفلما نستريح

وضاق بكل متحل صلاحاً

لتن ذنوبه البلد الفسيح

وله أيضا :

وخيرها أبوها بين شيخ كثير المال أو حداث فقير ...

فقلت خطئا خسف وما ان

أرى من حظوة للمستخير

ولكن ان عزمتم فكل شيء

أحب الى من وجه الكبير

لأن المرء بعد الفقر يثرى

وهذا لا يعود الى صغير

ومن حكمه ما قاله في مقابر الأغنياء والفقراء :

أرى أهل اليسار اذا توفوا
بنسوا تلك المقابر بالصخور
أبوا الا مباهاة وفخراً
على الفقراء حتى في القبور
ألمّا يبصروا ما خربته الـ
دهور من المدائن والقصور
نعر أيهم لو أبصروها
لما عرفوا الاناث من الذكور
ولا من كان يلبس ثوب صوف
من البدن المباشر للحرير
اذا أكل الثرى هذا وهذا
فما فضل الكبير على الحقير ؟

وكان يحيى بن حكم هذا لبق الحديث ، حسن الصورة ،
وسيماً ، حتى غلب عليه لقب الغزال لجماله . وكانت له قوة
ساحرة في التسلط على قلوب الناس . وقد بلغ من افتتان النساء
به أنه حين أرسله عبد الرحمن الأوسط في سفارة الى بلاد
الدانيمارك غزا قلوب حاشية البلاط هناك وتسلط عليهن بظرفه
ولباقة حديثه . وأعجبت به الملكة « تود » حتى قالوا انها كانت
لا تصبر عن بعده يوماً واحداً . وقد تعلق هو أيضاً بتلك الملكة .
ومما قاله فيها :

كلت يا قلبى هوى متعبا
غالبت منه الضيغم الأغلبا
انى تعلقت مجوسية^١
تأبى لشمس الحسن أن تغربا^٢
يا «تود» يارود^٣ الشباب التى
تطلع من أزرارها الكوكبا
يا ، بأبى الشخص الذى لا أرى
أحلى على قلبى ولا أعذبا
ان قلت يوما ان عيني رأت
مشبهه لم أعده أن أكذبا

وقد ضاعف نجاح هذا الشاعر فى تلك السفارات الأوربية
ما كان يحس به من غرور وما كان يتصف به من زهو و صلف .
وقد ساءه منذ حضر زرياب الى بلاط قرطبة اطراد نجاحه وزيادة
تفوقه ، حتى كاد يطفئ على كل شىء حوله ، وأن يقضى على
ما كان يتمتع به يحيى من سلطان وما كان له فى البلاط من
منزلة وتفوذ . فزاد حقه على زرياب ، وتزعم حركة قامت
لمناوآته . وبالنح فى الأمر حتى هجا زرياب هجاء مقنعا . وكان
يحيى سليط اللسان . ومن هجائه اللاذع لأبى حازم قوله :

(١) يعنى نصرانية .

(٢) أى انها لحسناها تقوم مقام الشمس التى لا تغرب .

(٣) الرود : الطلب والمطلب .

سألت في النبوم أبي آدم

فقلت والقلب به وامق^١

أبنك بالله أبو حازم ؟

صلى عليك الملك الخالق

فقال لي : ان كان منى ومن

نسلى فحوا أمكم طالق

ولما بلغ الخليفة الهجاء المسف الذي قاله يحيى في زرياب غضب على الشاعر غضبا شديداً حتى أمر بنفيه من الأندلس . فرحل الى العراق^٢ . فهل استطاع الغزال الشاعر المتصلف أن ينجح في بغداد فجاح زرياب الموسيقار المتواضع في قرطبة ؟

لم يكن في طاقة الغزال أن ينجح في المشرق وفيه أكابر شعراء العروبة اطلاقاً . فلما جلس الى جماعة من أهل بغداد رأى استخفافهم بأهل الأندلس واستهجانهم لأشعارهم . فاستخدم يحيى عبقريته الدبلوماسية على يصيب بينهم شيئاً من النجاح . لقد كان حضوره الى بغداد بعد وفاة أبي نواس شاعر الحمريات ولذاذات العيش . فانتظر الغزال حتى ذكروا في أحد مجالسهم شاعرهم الفقيده ، فقال لهم : من منكم يحفظ لأبي نواس قوله :

(١) ومق : أحب . وتومق : تودد .

(٢) وقد عاد الى قرطبة بعد موت زرياب وفي عهد محمد بن عبد الرحمن

الأوسط . ومنعود الى ذكر ذلك فيما بعد .

ولما رأيت الشرب أكدت سماءهم
تأبطت زقى واحتبست عنائي
فلما أتيت الحان ناديت ربه
فثاب خفيف الروح نحو ندائي
قليل هجوع العين الا تعلّة
على وجل منى ومن نظرائي
فقلت : أذقنيها ! فلما أذاقها
طرحت اليه ريطتى وردائي
وقلت : أعرنى بذلة أستتر بها
بذلت له فيها طلاق نسائي
فوالله ما برّت يمينى ولا وقت
له غير أنى ضامن بوفائي
فأبنت الى صبحى - ولم ألك آثبا -
فكل يفدّينى وحقّ فدائي
فأعجبوا بالشعر وأثنوا عليه ومدحوه . فلما أفرطوا ، قال
لهم : خفضوا عليكم فانه لى .
ثم أنشدهم قصيدته التى مطلعها :
تداركت فى شرب النبيذ خطائي
وفارقت فيه سيمتى وحيائي
ولكن الغزال رغم كل هذه المحاولات لم يصادف فى بغداد
نجاحا يذكر وهذه كانت النتيجة الحتمية لتصديه لعبرى فذ
ليست بينهما مزاحمة فنية تدعو الى الحقْد والمنافسة . ولم

يستفد الغزال من هذا الحسد وذلك التصدى شيئا سوى النفى
والغربة والهزيمة أمام شعراء في أزهى عصور العروبة ليس له
مثل شعرهم ولا مثل بلاغتهم . وكانت هذه أيضا نتيجة
لمخاصمته وحقده على زرياب هو ومن جمعهم حوله من حاشيته
وأتباعه ، وبذل غاية الجهد في مناوآته ، حتى قيل عن زرياب في
هذه المناسبة : « لولا أن خلفاء زمانه أخذوا بيده ونصروه على
خصومه لأراح ضحيتهم » .



ولعل لنا في ذلك عبرة ، فهي عظة يحملها إلينا التاريخ عبر
العصور والدهور ، أن من يعيش أنانيا محبا لنفسه غير عابىء
بالمصلحة العامة مناوئا للعابرة المجددين يعيش طريدا حتى ولو
كان عزيزا في قومه ، وإن الذى يعيش مخلصا لفنه ومهنته عاملا
لصالح المجتمع وتقدم البشرية يبلغ من المجد أبلغ غاياته ويظل
دائما عزيزا مكرما ، ومن الجميع في موضع التجلة والاحترام حتى
ولو كان غريبا لاجئا .

وهكذا تنتهى مكاييد خصوم زرياب وحساده الى الخيبة
والفشل ، وترقد نبال دسائسهم الى صدورهم ، فينتصر عليهم
انتصار الخير على الشر والحق على الباطل .

الفصل السادس

أبنائه وتلاميذه وجواريه

● ابنه .

● تلاميذه وجواريه .

أبناءؤه وتلاميذه وجواريه

ابشائه :

كان لزياب من ذكور الولد ثمانية هم :

عبد الرحمن ، وعبيد الله ، ويحيى ، وجعفر ، ومحمد ، وقاسم ، وأحمد ، وحسن . ومن الاقاات ثنتان : علية وحمدونة . وكلهم شغف بالغناء ، ومارس هذه الصناعة وبلغ فيها الغاية وان اختلفت فيها مرتبتهم . فكان أجودهم في الذكور عبيد الله ، ويتلوه في ذلك عبد الرحمن وقاسم .

وقد بلغ بعبد الرحمن من فرط التيه وشدة الزهو وكثرة العجب بغنائه أن ظن أنه الأوحى في هذه الصناعة ولا نظير له فيها . وكان يتسم بجفاف الطبع والخشونة وعنف المعاملة مع الناس . وذلك على قهيض ما كان يتحلى به والده من الشمائل الحلوة والظرف الجميل . وقلما سلم مجلس حضره هذا الفنان الطائش المشاكس من شغب وكدر يحدثه . وبلغ به الزهو أن يجترى على الأمراء ويستخف بالعظماء . والرواية التالية تدل على مدى سخفه وعقم تفكيره . قالوا :

« انه حضر يوما مجلس بعض الأكابر الأعظم ، في أنس طاب به سروره ، وكان صاحب قنص تغلب عليه لذته . فاستدعى بازيا كان كلنا به كثير التذكر له . فجعل يمسح أعطافه

ويعدّل قوائمه ويرتاح لنشاطه . فسأله عبد الرحمن أن يهبه
له . فاستحيا من رده وأعطاه إياه مع ضئله به . فدفعه
عبد الرحمن الى غلامه ليحبل به الى منزله ، وأسرّ فيه بسر لم
يطلع عليه . فمضى لشأته . ولم يلبث أن جاء بطيفورية مغطاة
مكرمة بطابع مختوم عليها من فضة . فاذا به لون مصوص قد
اتخذ من البازي بعد ذبحه على ما حده لأهله . وذهب الى
الانتقال اليه في شرابه . وقال لصاحب المجلس : « شاركني في
قلبي هذا فانه شريف بديع الصنعة » . فلما رآه الرجل أنكر
صنعتة وعاب لحمه . وسأله عنه . فقال : هو البازي الذي كنت
تعظم قدره ولا تصبر عنه قد صيرته الى ما ترى . فغضب
صاحب المنزل حتى ربا في أثوابه وفارق حلمه ، وقال له : « لقد
كان والله أيها الكلب السفیه على ما قدرته وما اقتديت فيه
بكبار الناس المؤثرين لمثله . وما أسعفتك به الا معظما من
قدرك ما صغرت من قدرى ، وأظهرت من هوان السنة عليك
بإستحلالك لسباع الطير المنهى عنها . ولا أدع والله الآن
تأديبك ، اذ أهملك أبوك معلم الناس المروءة » . ودعا له
بالسوط . وأمر أن ينزع قلنسوته وساط هامته مائة سوط .
فاستحسن الجميع فعله وأبدوا الشماتة به .

وهذه القصة تدل على شذوذ كامن ، وعلى غرور واضح
فى عبد الرحمن الذى لم يعان الشقاء والمحنة كما عانى والده
الرقيق المهذب ، وانما استقبل السعادة منذ قدم مع الأسرة الى

الأندلس فوجد النعمة التي غرته حتى انتهت بمائة سوط على هامته .

وكان محمد بن زرياب مؤثرا لا ينبغي الا اناثا . كما كانت حمدونة فنانة وشاعرة وزوجة سعيدة لوزير خطير المكاة هو هشام بن عبد العزيز . وقد اشتهرت بفصاحة اللسان ، وهي غير حمدونة التي لقبوها بخنساء المغرب ، والتي من شعرها :

ولما أبى الواشون الا فراقنا
وما لهم عندي وعندك من ثار
وشثوا على أسماعنا كل غارة
وقل : " حماة عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي
ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وكانت حمدونة متقدمة على أختها عثلية التي امتد بها العمر بعد شقيقتها وأخوتها ، ولم يبق من ولد زرياب سواها فكافيت بمثابة المرجع الأخير من الأسرة لرواية فن أيها في أهل الأندلس .

تلاميذه وجواريه

أما عن تلاميذ زرياب فيمكن القول ان جميع المغنين والمغنيات في الأندلس هم تلاميذه وتلاميذ مدرسته . وقد سبق أن ألمعنا الى ذكر بعضهم ، ونشير بصفة خاصة فيما يلي الى طائفة أخرى ذاعت شهرتها وكان لها أثر ظاهر في النهضة الموسيقية بتلك البلاد .

كانت لزرياب جارية اسمها « منعمة » قام على تثقيفها وتعليمها ، فكانت تؤدي أغانيه أحسن أداء ، وهي الى ذلك رائعة الجمال . وحدث يوما أن مثلت بين يدي عبد الرحمن الأوسط ، فأخذت تغنيه مرة وتسقيه أخرى . فلما فطنت لاعتجابه بها ، كاشفته هي الأخرى بعيلها اليه . وغنته بهذه الأبيات ، وهي من تأليفها في رواية بعض الحفاظ :

يا من يغطي هواء	من ذا يغطي النهارا
قد كنت أملك قلبي	حتى علقت ، فطارا
يا ويلتا ، أنراه	لى كان أو مستعارا

ولما أحس زرياب بأنها حازت من الأمير قبولا ورضا ، أهداها اليه فحظيت عنده .

وكانت « مصاييح » جارية الكاتب أبي حفص عمر بن

تلميح من تلميذات زرياب اللائي أخذن عنه فنون الغناء
والموسيقى . وكانت غاية في علو النفس وحسن الصوت وقد
رغب ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد في سماعها ، ولكن مولاها
أبا حفص أبى عليه ذلك . فوجه ابن عبد ربه اليه أبياتا رقيقة
منها :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد
ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة
أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلما بلغه ذلك ، قبل دخول ابن عبد ربه الى مجلسه والتمتع
بسماعها .

واشتهر كثير من الجوارى المشرقيات اللواتي استدعاهن
عبد الرحمن الأوسط الى قرطبة فكن فيها رواد الموسيقى
والغناء بفضل ما أسبغ عليهن زرياب من تعليم وتدريب وتوجيه
فنى جعلهن في طليعة أعلام هذا الفن . وكان منهن أربع هن
المقام الأول ، هن :

١ — « فضل » : وكانت على جانب كبير من حسن الخلق
وجمال الصوت . وهى من جوارى احدى بنات هارود
الرشيد ، نشأت فى بغداد وتعلمت بها أصول فن الغناء . ثم
انتقلت الى المدينة بعد أن اعتقت ، حيث ذاعت فيها شهرتها .
٢ — « علم » : وكانت كصاحبها جملة الظرف ، حسنة

الصوت ، عالية الثقافة . نالت في المدينة شهرة ذائعة قبل
رحيلها الى الأندلس .

٣ - « قلم » : وهى أندلسية الأصل ، حملت صبية الى
المشرق ، وتعلمت في المدينة أصول الغناء حتى برعت فيه .
وكانت على جانب عظيم من فصاحة اللسان والمقدرة البيانية .

٤ - « قمر » ، وكانت رائعة الجمال ، وثيقة المعرفة بفنون
الغناء وصوغ الألحان وقد قدمت من بغداد ، وأصبحت أديبة
شاعرة .

ومن شعرها في الشوق الى بغداد :

آه على بغدادها وعراقها

وظبائها والسحر في أحداقها

ومجالس عند الفرات بأوجه

تبدو أهلتها على أطواقها

متبخترات في النعيم كأنما

خلق الهوى العذرى من أخلاقها

تفى الفداء لها لآى محاسن

في الدهر تشرق من منا اشراقها

واستطاع زرياب - بفضل أبنائه وجواريه وتلاميذه الذين
وفدوا معه والذين تلقوا على يده صناعته - أن ينقل
غناؤه الى أكثر بقاع الأندلس . واستجابت طبيعة الأندلسيين الى

فن الموسيقى فانتشرت مجالس الغناء ، وأصبح هذا الفن بجملته جزءاً من ثقافة الشعب ، حتى لتجد الفلاح في حقله والعامل في مصنعه والفقير في كوخه لا يقل ولع أحدهم بالغناء عن الأمراء والعظماء .

روى الأرقمى :

« ... قال لى أبو السائب ، وكان من أهل النسك : هل لك في أحسن الناس غناء ؟ قلت : وأين ذلك ؟ فجبنا الى دار « مسلم بن يحيى » مولى بنى زهرة فأذن ، فدخلنا بيتا عرضه اثنا عشر ذراعاً في مثلها ، وطوله في السماء ستة عشر ذراعاً . وفي البيت مقعدان قد ذهب عنهما اللحم وبقي السدى ، وقد حشيا بالليف ، وكريسيان قد تفككا من قدمهما . ثم طلعت علينا جارية عجفاء كلفاء عليها هروى أصفر غسيل . فقلت لأبى السائب بأبى أنت ما هذه ؟ فقال : اسكت . وتناولت الجارية العود ، وغنت :

بيد الذى شغف القواد بكم

تفريج ما ألقى من الهم

فاستبقنى انى كلت بكم

ثم افعلى ما شئت عن علم

قال : فتحسنت في عيني . وبعد أن أذهب الكلف عنها ،

وبعد أن علمت أنها هي « العجفاء » المغنية بقينا نتردد إليها ،
حتى صارت عند الأمير عبد الرحمن .

وكان من أثر زرياب ومدرسته الموسيقية أن أصبح
للخلفاء والأمراء وأكابر القوم شغف خاص بالغناء حتى لقد
مارسه الكثير منهم ، على سبيل الهواية لا الاحتراف . وقد
أشرنا الى الندوات والمجالس التي كانت تقيمها « ولادة » بنت
الخليفة المستكنى بالله ، وكانت في إجادتها لأصول الغناء ، وعلو
مكاتها ، وشرف محتدها في المغرب ، مسامية لعثلية بنت المهدي
في المشرق .



ولا يفوتنا أن نشير الى أنه اذا كان من الميسور أن فحصر
عدد أبناء زرياب وبناته ، فليس من السهل أن نحاول تقديم
احصاء لتلاميذه والمتأثرين به ، فانهم أكثر من أن يحتويهم بيان
واف بهم وبآثارهم ، فقد كانوا من الكثرة بحيث لم تقتصر
عليهم مدينة قرطبة بل كانوا ملء الأندلس ومدنها وقراها .

وعلى قدر ما كان لزرياب وأبنائه وتلاميذه من الأثر
الملحوظ في نشر الموسيقى والغناء بالأندلس ، فلقد كان له
ولمدرسته أعظم دفع فني وتأثير في خلق ألوان من الشعر
للأندلسي الجديد .

لم يكن زرياب من أبطال الشعر والمتخصصين فيه

المشهورين به ، كما كان في الموسيقى بمقامه الكبير . ولكن
تجديده في الموسيقى كان بحاجة الى خلق ألوان جديدة من
الشعر تسير هذا التطور . وقد تم له ذلك فكان اختراع
الموشحات والزجل استجابة لهذا الفن الجديد . وحسبنا أن
يكون من ثمار هذه المدرسة ، ومن طليعة هذه النهضة : مقدم
ابن معاني القبري وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وغيرهما
ممن ساهم في ابتكار وتدعيم ما استحدثت من تلك الموشحات
والأزجال .

الفصل الثاني

الموشحات والأزجال

● مرحلة البداية .

● مرحلة الازدهار .

الموشحات والأزجال

كان في مقدمة البواعث التي حدت الى ظهور الموشحات والأزجال في بلاد الأندلس عاملان : أحدهما فنى والآخر شعبى .

فالعامل الأول : طموح الموسيقيين ، وقد ضاقوا ذرعا ببحور الشعر وأوزانه الموروثة التي سجلها علم العروض ، وبالقافية المتكررة طوال القصيدة التي تسير على روى واحد في جميع أبياتها ، بما يقيد من حرية الملحن ويجمد امكانياته الفنية الى حد بعيد . فلما جاء زرياب ومدرسته من أبنائه وتلاميذه ، وجددوا في فنون الموسيقى العربية ، وتطوروا بها وبآلاتها وأنظمتها ، تطلب منهم الوثاب مجالات فسيحة وضروبا جديدة من فنون الشعر . واحتاجوا الى ايجاد ألوان طريفة منها ، تعبر تعبيراً مبتكراً عن تلك الموسيقى الجديدة المتطورة ، ألوان يتحلل فيها الفنان من قيود تلك البحور المحدودة والقوافى الضيقة المحدودة التي درج عليها الشعر وظل قرونا وأحقابا لا يتغير الا من حيث الفكرة والأسلوب ، وبقي مغلولاً في تلك الأصناف من تلك الأوزان والقوافى .

وسرعان ما استجاب الى هؤلاء الموسيقيين المجددين شعراء موهوبون ، لم يستطيعوا أن يجاروا شعراء المشرق

فيما بلغوه في الشعر العربي التقليدي من سمو المكانة وعلو
المنزلة ، فوجدوا في مجازاة الموسيقيين متنفسا لفن جديد ،
واخترعوا ألوانا مبتكرة من الشعر هي الموشحات ثم الأزجال .

وتنقسم الموشحات من حيث أوزانها الى قسمين :

(١) موشحات جاءت على أوزان أشعار العرب .

(٢) موشحات لا وزن لها في أوزان العرب .

وقد قالوا عن القسم الأول — أى ما جاء على بحور الشعر .
المعروفة — ان الوشاحين يعدونه مرذولا . وهو في نظرهم أشبه
بالمخمسات منه بالموشحات ، ولا ينظمه الا الضعفاء من أصحاب
هذه الصناعة . وهم لذلك يستحسنون أن يحوروا فيه
ويخرجوه عن الوزن المعروف بإدخال كلمة أو حركة تتخلل
فقراته . فمثال الكلمة قول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني
معذبي كفاني

فهذا من المنسرح . وأخرجه منه قوله : « معذبي كفاني » .
ومثال الحركة :

يا ويح صب الى البرق . له نظر

وفي البكاء مع الورق . له وطر

فهذا من البسيط . ومجيئه على هذه الصورة فيه استباحة
لزعافات لا يستيحها الشعراء التقليديون .

أما القسم الثاني فهو ما خالف أوزان العرب ، ولم يخضع
لعروض الشعر التقليدي ، وغرضه الغناء أكثر من الانشاد .

وهو الكثير الشائع في الموشحات لأن الأصل في اختراع الموشحات إنما كان من أجل الغناء . ولهذا فإن الشاعر الوشاح لا يطلب إليه التقيد بوزن قديم معروف . وميزة فن الموشحات وجماله في حرية الوزن حرية تقودها أذن موسيقية وتدعو إليها ضرورات التلحين والغناء .

ولذلك نرى الوشاحين إنما يعتمدون اللحن والموسيقى ، ويقصدون إلى الغناء والطرب . ولهذا فقد نظموا هذه الموشحات فيما يلائم الموسيقى والغناء فكانت ، في الأعم والأغلب ، تهدف إلى العاطفة ، وتسكن إلى الطبيعة ، وتجنح إلى رقّة الألفاظ وقصر الفقرات وجمال التصوير . وهي في ذلك تخضع للنغمات الموسيقية لا للتفاعيل العروضية . ولذلك نرى المغنى عند أدائه لها يزيد عليها كلمات مثل : « يا للتى » أو « أمان » . أو يعوض فيها قص الوزن بمدّ حرف أو قصره أو غنته . ولذلك قالوا :

« ان طبيعة التوشيح والزجل تجعلهما يسمعان أحسن مما يقرآن ، ويقولان بالأذن أكثر مما يقولان بالعين » .

وقد قال ابن سناء الملك في ذلك :

« ليس للموشحات عروض الا التلحين ، ولا ضرب الا الضرب ، ولا أوتار الا المبالوى وأكثرها مبنى على الأرغن^(١) . »

(١) يعنى الآلات الموسيقية .

وقد تحرر شعراء الموشحات والأزجال من التقيد ببحور الشعر الستة عشر فقالوا فيها من الأوزان ما شاءوا أن يقولوا ، مرجعهم في ذلك الى الأذن والسمع . وقد حاول ابن سناء الملك حصر أوزان الموشحات كما فعل الخليل في أبحر الشعر فأخفق وقال :

« وكنت أردت أن أقيم للموشحات عروضاً يكون دفترها لحسابها ، وميزاناً لأوتارها ، فعز ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف » .

وكما تطلت الموشحات من بحور الشعر ، تخطت كذلك عن التقيد بقافية واحدة يلتزمها الشاعر طوال القصيدة . فتعددت قوافي الموشحة ، كما تنوعت أوزانها ، حتى لا تخضع لنغمة واحدة يتسبب عن تكرارها السآمة والملل .

العامل الثاني في ظهور الموشحات في الأندلس : أن ابتكار هذا الفن جاء موافقاً لطبيعة تلك البلاد وأهلها . فهو فن خلق لوصف حياة اللذة والترف والأنس التي كان يتمتع بها أهل الأندلس . وكثيراً ما نجد هذه الموشحات تتعرض لوصف طبيعة تلك البلاد « فتصورها بألوانها وأصباغها ، وطيورها وبلايلها وأزهارها وأشجارها وجداولها وعبيرها » ... والموشحات هي فن ملتقى العشاق وساحة اللهو والطرب ومبعث الحب والحنين .

والموشحات من أجل ذلك لا تقصد في تأليفها الى عمق المعاني ومتانة التراكيب ، إنما هدفاً الأول أن تمهد لجو موسيقى

حبيب تظلمه أضواء خفيفة وتشوة حلوة في صورة براءة من
تأليف يستسيغه الذوق العام وتنعكس عليه ألوان الطبيعة
بسحرها وعطرها وشذاها .

ولهذا فقد لاقت الموشحات منذ ظهورها في الأندلس
رواجا كبيرا في جميع الأقطار العربية لاعتمادها على الفناء
وملاءمتها للنفوس الهائثة حيث تنقل المستمع الى تشوة حلوة
وجو حبيب .

ولقد كان في سرعة استجابة جمهرة أهل الأندلس لهذا
اللون الجديد من الشعر ومتابته لأذواقهم ، ومساييرته
لمفاهيمهم اللغوية ، ما دعم هذا الاتجاه الشعبي الجديد . ذلك
أن سكان الأندلس لم يكونوا جميعا عربا صرفا في ذلك
الوقت ، بل كانوا مزيجا من العرب والبربر والأسبان ، فان
عدد العرب الذين دخلوا أسبانيا في فترات الفتح كان قليلا
جدا . ثم اعتنق الكثيرون من الأسبان الدين الاسلامي وأقبلوا
على دراسة اللغة العربية . وهذا مما لا يمكن معه اعتبار مسلمي
الأندلس جميعهم من أصل عربي أو مشاركة . لذلك كانت
اللغة الدارجة التي يستخدمها أفراد الشعب في مخاطبتهم وفي
معاملاتهم اليومية وداخل بيوتهم مزيجا من اللغة العربية
والبربرية والأسبانية ، وأحيانا اللاتينية . وكان فهم الشعر
العربي الفصيح مقصورا على طبقة المثقفين من العرب
والقيلين جدا من الطوائف الأخرى . فما كادت تظهر الموشحات
ثم الأزجال باللغة الدارجة حتى استجاب لها الشعب ، اذ كانت

بمثابة ألوان من الأدب الشعبي يستطيع فهمها ، وإن ارتفعت في ذلك الموشحات عن الأزجال من حيث اللغة قليلا أو كثيرا .

فالزجل والموشحة في واقع الأمر فن شعري واحد . ولكن الزجل يطلق على السوقى الدارج منها ، إذ لا بد أن يجرى باللغة الدارجة ، فقد كان يتغنى به في الطرقات والأسواق . أما الموشحة فتكون باللغة العربية الفصحى الا قليلا . واسمها كذلك عربى كما هو واضح . وربما استطعنا أن نقول إن لفظ الموشحة يطلق على المذهب من الزجل الذى يصاغ فى أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال . أما سبب تسميتها بالموشح فلأنهم جعلوا تنسيقها وتنميقها بمثابة الوشاح .

ولقد استجاب أهل الأندلس لهذه الألوان الشعبية من الشعر ، كما أقبلت عليها سائر شعوب البلاد العربية اقبالا عظيما ، ليس تناولها وقرب طريقتها ، ولأنها أعفتهم من قيود الاعراب والتزام القوافى . كما سمحت لهم باستعمال الكلمات الدارجة والتعبيرات العامية الطريفة . وامتازت بالسهولة ، مما أكسبها الحياة واطراد التقدم والازدهار .

وقد سارت الموشحات فى تطورها على مرحلتين :

مرحلة البداية :

وهى المرحلة التى عاصرها زرباب فى أواخر سنى حياته . ولئن اتفق المؤرخون على أن فن الموشحات ابتكار أندلسي فقد اختلفوا فىمن يكون هو المخترع الأول لهذا الفن . فقال ابن بسام فى كتابه « الذخيرة » ما نصه :

« وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واخترع
طريقتها — فيما بلغنى — محمد بن محمود القبرى الضرير » .
أما ابن خلدون فيقول فى مقدمته :

« وكان المخترع الأول بجزيرة الأندلس مقدم بن معافى
القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد للمروانى^١

وظل الكثيرون من المؤرخين ، العرب والمستشرقين ،
يعتقدون أن الرجلين رجل واحد ، وإنما وقع فى إحدى الروايتين
تحريف فى الاسم ، الى أن نشر الدكتور عبد العزيز الأهوانى
بحثا فى « مجلة الأندلس » الأسبانية بالعدد الثالث عشر من
عام ١٩٤٨ أثبت فيه « أن كلا من الشاعرين الأندلسيين
المنسوبين الى قرية قبنة معروفان ، ولهما تراجم مدونة .
ولهذا فليس من داع لأن تفترض أن الاسمين تحريف لواحده
عن الثانى » .

واذن يكون محمد بن محمود شخصا آخر غير مقدم
ابن معافى . وقد ابتكر كل منهما هذا الفن الشعرى فجعله على
نظام جديد وفسق جديد من القوافى والأوزان .

ولكن بقى بعد هذا أن نعجب مع الكثيرين من المؤرخين
ومع المستشرق « غارميا غومن » الذى نشر تعليقه على مقال
الدكتور الأهوانى فى العدد نفسه من المجلة المذكورة ، فلم
يتخف عجبه من أن يكون مخترع فن الموشحات شاعرين ،

(١) كانت مدة خلافته ٢٧٥ هـ \ ٨٨٨ م - ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

كلاهما. من قرية واحدة هي قبرة ، وكلاهما في عصر واحد هو
عصر الأمير عبد العزيز بن محمد المرواني !!.

ويعود هؤلاء المؤرخون فيقولون : ولم هذا العجب ؟ ولماذا
لا يكون اختراع الموشحات متعدد المنابع ، وفي وقت واحد ،
وقد بعثت على تكوين هذا الفن عدة مؤثرات اجتماعية واقليلية
وأدبية وغنائية . فلا بد من انبعث هذا الابتكار في محاولات
تظهر على السنة عدد من الشعراء ، فماذا يمنع والحالة هذه من
أن يكون مخترع الموشح شاعرين أفدلسيين من قرية واحدة
وفي عصر واحد ؟

وعن محمد بن محمود ومقدم بن معافى أخذ أحمد بن عبد ربه
صاحب العقد الفريد وقد عاش بين سنتي ٢٤٠ — ٣٣٨ هـ
(٨٦٠ — ٩٣٩ م) في الدولة الأموية في الأندلس . وروى أنه
كان في صباه لاهياً مولعاً بالغناء وقد نظم في ذلك القصائد
والمقطوعات الرفيعة الجميلة . وقد سبق أن ألمعنا الى أنه كان
في شبابه المبكر ممن عاصروا زرياب من الشعراء في بلاط
عبد الرحمن الأوسط .

وكانت الموشحات في بداية أمرها غير فاضحة حتى قال
ابن خلدون عن القبري وابن عبد ربه : « ولم يظهر لهما مع
المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما » .

وفحن وإن لم يصلنا شيء من موشحات هؤلاء الشعراء
السباقين الى ابتكار هذه الألوان ، إلا أنه يغلب على الظن

أنها كانت ما تزال في بدايتها ، فلم يعم تداولها ولم يذكرها المتأخرون .

مرحلة الازدهار :

ظلت الموشحات على بساطتها غير فاضحة الى أن ظهر في نهاية الدولة الأموية بالأندلس أول من برع في هذا الفن . فقد أقام عماده « عبادة بن ماء السماء » (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون) . وقد توفي عام ٤٢٢ هـ (١٠٤٠ م) وفي هذا يقول ابن بسام في النخبة :

« كان أبو بكر بن ماء السماء في ذلك العصر شيخ الصناعة ، وإمام الجماعة . سلك الى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائب مرحبا وأهلا . وكانت صنعة التواشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ، ووضعوا حقيقتها غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود . فأقام عبادة هذا منادها ، وقوِّم ميلها وسنادها . فكأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته ... » .

ثم تتابع شعراء ووشاحون كان في مقدمتهم « عبادة القزاز » شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية . وقد تغنى بحامد بنى صمادح في موشحات كثيرة . وقد وصفه ابن خلدون بأنه « أول من برع في هذا الشأن » . وقيل عنه « كل الوشاحين عيال على عبادة » .

ومن أجمل موشحاته التي حازت قصب السبق ، وسادت
العصور في تصوير مقدرة أهل هذا الفن الأندلسي ، والتي
تعتبر أقدم ما يتغنى به اليوم :

بدر تيم شمس ضحا غصن قها مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أنم
لا جرم من لحا قد عشقا قد حرم
وكان « الأعمى التطيلي » من أبرع الوشاحين المتقدمين في
الأندلس (توفي عام ٥٢٠ هـ) ومن أجمل موشحاته تلك
التي مطلعها :

ضاحك من جمان مسافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صبرى
آه مما أجده شفتى ما أجده
قام بى وقعد باطش متشد
كلما قلت قد قال لى أين قد

والثنى خوط بان ذا مهز نضر عابته يدان للصبيا والقطر
وقد ذكروا أن جماعة من الوشاحين قد اجتمعوا في مجلس
باشبيلية ، وقد أعد له كل منهم موشحة متممة ، فلما تقدم
الأعمى التطيلي للانشاد ، وسمعوا استهلال هذه الموشحة ، مزق
الباقون موشحاتهم .

ومن أبرع الوشاحين الذين عاصروا عبادة بن ماء السماء
وعبادة القزاز والأعمى التطيلي ، الحكيم « أبو بكر محمد
ابن الصائغ المعروف بابن باجة » . وقد اختلف في تاريخ وفاته

فقالوا توفي عام ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) أو ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) .
واشتهر بالتبحر في الفلسفة والموسيقى وقول الشعر الجيد .
وهو الذي أتم نهضة زرياب الغنائية .

حضر يوما مجلس أبي بكر إبراهيم بن قنطويت صاحب
سرقسطة ، فألقى على قياه موشحته التي مطلعها :
جرر الذيل أيمًا جرّ وصل الشكر منك بالشكر
حتى اختتمها بقوله :

عقد الله راية النصر للأمير العلاء أبي بكر
فصاح الأمير « واطرباه » ، وشق ثيابه . وقال : « ما أحسن
ما بدأت وما ختمت » . وحلف الأيمان المغلظة لا يعيش ابن باجة
إلى داره إلا على الذهب فخاف ابن باجة ما قد يتسبب عن ذلك
من سوء العاقبة ، واحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه .



ويعزى إلى « ابن قزمان » أنه أول من صنع الزجل
بالأندلس . وهو أبو بكر بن عبد الملك بن قزمان ، وينتسب
إلى أسرة قزمان من بيوت قرطبة العريقة . ولد في قرطبة بعد
عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وتوفي عام ٥٥٤ هـ / ١١٦٠ م . ولكن
هذا الزعم يبدو بعيداً عن الحقيقة . فقد قرر ابن قزمان نفسه
في مقدمة ديوانه :

« انه وجد في الأندلس ضربان من الزجل جنبا إلى جنب ،
أولهما شعبي جاف غليظ يستعمل فيه الزجالون اللغة الدارجة

وأعجبية أهل الأندلس ، وكان يوافق أذواق العوام . وثانيهما مصقول مهذب ، مصطنع متكلف ، يستعمل الناس فيه حركات الاعراب التي لا تجرى بها ألسنتهم في دارج الحديث . ولم يبق من النوع الأول شيء لأن مصطنعي كتب الأدب ازدروه و ضربوا عنه صفحا . وأما الثاني فلدينا منه أطراف ولكنها لا تخلو من الجاذبية وسهولة الطبع التي يمتاز بها النوع الأول .

لهذا فإنا نقول مع القائلين أن ابن قزمان لم يخترع الزجل كما يزعمون ، إنما الذين تقدموه هم مبتكرو هذه الألوان التي قام هو بدراستها ثم شق لنفسه طريقا خاصا في تصنيف الزجل . ورأى أن من فساد الذوق أن تستعمل حركات الاعراب في شعر يراد أن يتغنى به للعامة من الناس . فكان رأيه استعمال لغة الكلام الدارجة حتى يقرب من أفهام الجمهور ، على أن يكون ذلك في أسلوب منمق رشيق وأن يختار من الموضوعات أحفلها بالفكاهة مما يثير اهتمام أوساط الشعب ، وأن تكون سهلة بعيدة عن التعقيد والتكلف ، بل وتجري على أسلوب يستعمله الناس في حلقات الموسيقى الشعبية ومجالات اللهو والتسلية والترفيه .

ويضم ديوان ابن قزمان تسعة وأربعين ومائة زجل ، فيها رباعيات وخماسيات وسداسيات وسباعيات وثمانيات وتساعيات وعشریات وآحاد عشریات .

وعلى الرغم من القوالب المبتكرة التي تبدو واضحة في أزجال ابن قزمان ، فإنها تدل في جلاء على أنها تخضع للطابع

الشعبي ، وأنها إنما نظمت ليتغنى بها المنشدون في الأسواق أو الجائلون في الطرقات .

وقد انصرف التلمس بعد ابن قزمان الى صناعة الزجل في كافة نواحي الأندلس حتى ظهر من الشعراء طائفة برعت في نظم الزجل البديع المبتكر .

وأقبل الأدباء والشعراء على صوغ هذا الأدب الشعبي الجديد من الموشحات والأزجال ، يتسابقون في تنميقه وتسميقه ، ويتفننون في أوزانه وألوانه سندهم في ذلك الموسيقيون الموهوبون الذين كانوا كأنهم على موعد من هذا الاقتاج المبتكر ، فكسوه جديدا من الألحان والأنغام التي آذنت بانبثاق فجر نهضة موسيقية جديدة لم يعرفها العرب من قبل ، حتى أصبحت الموشحات وألحانها أغلى كنز في تراث اللوسيقى العربية إطلاقا .

وهذه النهضة التي ظهرت في الأندلس رددت صداها جميع الأقطار العربية . وسرعان ما انتقلت للموشحات والأزجال بكلماتها وألوانها من الأندلس الى هذه الأقطار ابتداء من بلاد المغرب الى أقصى بلاد المشرق ، حتى قال ابن سعيد في مصنفه المغرب :

« رأيت أزجال ابن قزمان مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب » .

وهكذا لاقت الموشحات والأزجال لقبالا من جميع الأقطار العربية ، ذلك لأنها كانت تجتذب اهتمام الشعب كله بينما الشعر

لا يعنى غير طبقة المثقفين وحدها ... وأخذ كل بلد من البلاد العربية يتفنن فيها وينظمها بلهجته الدارجة تبعا لاختلاف الأقطار والأمصار ، كما أصبحت تعبر عن خصائص كل بلد . لأن اللغة العربية الفصحى عامة في جميع الشعوب العربية ، أما اللغة الدارجة فلكل قطر لهجته الخاصة به .

وعلى أساس الزجل اخترع عامة بغداد فناً من الشعر الشعبي سموه « المواليا » ، وتبعهم في ذلك أهل مصر .



وفيما يلي نماذج من مختارات هذه الموشحات والأزجال :
من أجمل الموشحات الأندلسية وأرقها موشحة ابن زهر
الاشبيلي المتوفى عام ٥٩٥ هـ . وقد نسبها البعض خطأ الى
عبد الله بن المعتز . وهى موشحة خالدة يتغنى بها حتى اليوم
في جميع الأقطار العربية :

أيها الساقى اليك المشتكى قد دعوك وان لم تسمع

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكا وسقاني أربعا في أربع

ما لعيني عشيقت بالنظر

أكرت بعدك ضوء القمر

فلذا ما شئت فاسمع خبري

عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى

غصن بان مال من حيث التوى

بات من يهواه من فرط الجوى

خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر فى البين بكى ويحه ييكى لما لم يقعر

وقد وضعت هذه الموشحة على نمط موشحة ابن بقى

القرطبي وهو وشاح بارع فى عصر المرابطين توفى عام ٥٤٠ هـ
ومطلعها :

عبث الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد فلبت أدمعى

أيها الناس فؤادى شغف

وهو فى بغى الهوى لا يتصف

كم أداريه ودمعى يكف

أيها الشادن من علمكا بسهام اللحظ قتل السبع

ولا بن زهر أيضا موشحة رقيقة مطلعها :

سلم الأمر للقضا فهو للنفس أقصر

واغتتم حين أقبل

وجه بدر تهلا

لا تقل بالهموم .. لا

كل ما فات وإقضى ليس بالحزن يرجع

ومن موشحة لابن سهيل الاشيلي المتوفى عام ٦٤٩ هـ :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى^١

قلب صب^٢ حله عن مكنس^٣

فهو في حر وخفق مثل ما

لعبت ريح الصببا بالقبس

يا بدورا أشرقت يوم النسوى

غثروا تسلك في نهج الغرر^٤

ما لنفسى في الهوى ذنب سوى

منكم الحسن ومن عيني النظر

أجتنى اللذات مكلوم الجوى

والتداني من حيبى بالفكر

كلما أشكوه وجدى بسما

كالربى والعارض المتجس

اذ يقيم القطر فيها مأتما

وهى من بهجتها فى عرس

ومن أجمل الموشحات وأرقها قول لسان الدين الخطيب

المتوفى عام ٧٧٥ هـ فى الغزل ووصف الطبيعة :

(١) حمى الحمى : منعه ودفع عنه . والمعنى هنا انه استقل وحده بقلبه .

(٢) المكنس : مأوى الظبي .

(٣) الغرر (بضم الغين) : جمع غرة وهى طرفة وجوه الحسان . والغرر

(بفتح الغين) : التعرض للتهلكة .

جاءك الغيث اذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك الا حلما
في الكرى أو خلسة المختلس
اذ يقود الدهر أشتات المنى
ينقل الخطو على ما يرسم
زَمَراً بين فرادى وثنى
مثلاً يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى
فتغور الروض عنه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما
كيف يروى مالك عن أنس^١
فكساه الحسن ثوباً معلماً
يزدهى عنه بأبهى ملابس

ومن موشحة لابن زيدون :
سقى الله أطلال الأجابة بالحمى
وحاك عليها ثوب وشى منمنما

(١) هذا البيت به تورية حلوة . فالنعمان ملك الحيرة ، ولكن المراد هنا شقائق النعمان . وماء السماء هي أم المنى وجدة النعمان ولكن المراد هنا الطر .

وأطلع فيها للأزاهير أنجمها
فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى
اذ العيش غص والزمان غلام

* * *

أهيم بجبار يمز وأخضع
شذا المسك من أردائه يتضوع
لذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع
فما أنا في شيء من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منام
ومنها في ذكر قرطبة :

سقى جنبات القصر صوب الغمام
وغنى على الأغصان ورق الحمام
بقرطبة الفرء دار الأكارم
بلاد بها شبق الشباب تمائم
وأنجبنى قوم هناك كرام

* * *

ومن موشحة لأبى بكر الأبيض الوشاح :

ما لذى شرب راح
على رياض الاقاح

لولا هضم الوشاح
إذا أسا في الضباح
أو في الأصل
أضحى يقول
ما للشمول
لظمت خدى
وللشمال
هبت فمال
غصن اعتدال
ضمه بردى



وقد ظهرت في ذلك الحين جملة من الموشحات المصرية لابن
سناء الملك الشاعر المصرى الذى ولد بالقاهرة عام ٥٥٠ هـ
وقضى كل حياته بها حتى توفى عام ٦٠٨ هـ . وهو أول من
حاول في المشرق العربى نظم الموشحات ، ويعتبر صاحب الفضل
في ادخال هذا الفن الى الشرق . وقد وضع كتابه « دار الطراز »
موضحا به قواعد فن الموشحات ومحددأ خصائصه وطرق نظمها
وأوزانها .

ومن أجمل موشحاته تلك التى مطلعها :

كللى	يا سحب تيجان الربى بالحللى
واجعلى	سوارها منعطف الجدول

يا سما	فيك وفي الأرض نجوم وما
كلما	أغربت نجماً أطلعت أنجماً
وهي ما	تهطل الا بالطلا والدمى
فاهطلي	على قطوف الكرم كي تمثلي
واقلي	للذن طعم الشهد والقرنفل
تتقد	كالكوكب الدرى للمرصد
يعتقد	فيها المجوسى بما يعتقد
فاتند	يا ساقى الراح بها واعتمد
وأمل لى	حتى ترانى عنك فى معزل
قليل	فالراح كالعشق ان يزد يقتل

وهذه الموشحة قالها ابن سناء الملك معارضا موشحة
عبادة بن ماء السماء المتوفى عام ٤٢٢ هـ ومطلعها :

من ولى	فى أمة أمرا ولم يعدل
يعزل	الا لحاظ الرشأ الأكحل
جرت فى	حكمتك فى قتلى يا مسرف
فانصف	فواجب أن ينصف المنصف
وارأف	فان هذا الشوق لا يرأف
علل	قلبى بذلك البارد السلسل
ينجلي	ما بنوادى من جوى مشعل

(١) يعتقد أى يرى فيها المجوسى الألوهية لأنها تتقد كمعبوده، النار .

ومن موشحة بصرية أخرى لصفى الدين الحلبي ١ :
لنا نشوة في الدجى فاشيه

بادراكها أصلحت شأنه

ترى ظلها في الضحى والمقبل
أشد وطاء وأق . — يوم قيل
فكانت لأنفسنا هاديه ولكنها للعدى داهيه
تبدت لنا فمللنا الحبا
وقلنا لها مرحبا مرحبا
بشمس بدت قبل رفع الحبا

ومن موشحة في التصوف لمحيى الدين بن عربى الأندلسي .
ولد بالأندلس عام ٤٦٨ هـ ونزح الى الشرق ، وطوّف في أنحاءه
وتوفي بدمشق عام ٥٤٣ هـ :

سرائر الأعيان ٢ لاخت على الأكوان

للناظرين

والعاشق الغيران من ذاك حرّان

يبدى الأئين

يقول والوجد أضناه والبعد

قد حيّره

(١) صفى الدين الحلبي عراقي الأصل واسمه عبد العزيز بن سرايا . هاجر
الى مصر واستوطنها منذ عام ١٠٢ هـ - ٧٢٦ م .
(٢) الأعيان : حقائق الاشياء المذكورة بالعيان .

لَمَّا دَفَا الْعَبْدُ لَمْ أَدْرِ مِنْ بَعْدِ
مِنْ غَيْرِهِ
وَهَيْئَ الْعَبْدِ وَالْوَاحِدِ الْفَرْدِ
قَدْ خَيْرُهُ
فِي الْبُوحِ وَالْكَتْمَانِ يَا عَابِدِ الْأَوْثَانِ (١)
أَنْتَ الضَّنِينِ (٢)

* * *

وَمِنَ الْأَزْجَالِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ فِي ذَلِكَ الْحِينِ قَوْلُ مَكْدَغَلِيْسِ
التُّونِسِيِّ :

وَرِذَاذَ دِرْقٍ يَنْزِلُ
وَشَتَاعَ الشَّمْسِ يَضْرِبُ
فَتَرَى الْوَاحِدَ يَفْضُضُ
وَتَرَى الْآخِرَ يَذْهَبُ
وَالنَّبَاتَ يَشْرَبُ وَيَسْكُرُ
وَالْغُصُونُ تَرْقُصُ وَتَطْرِبُ
وَتَرِيدُ تَيْجِي الْيَنْبَا
ثُمَّ تَسْتَحْنِي وَتَهْنَرُ

* * *

(١) عَابِدِ الْأَوْثَانِ : عَابِدِ الْجَسَدِ الْمَادِيِّ .

(٢) أَنْتَ الضَّنِينِ : أَنْتَ الْبَخِيلُ بِقَهْرِهِ لَتَقْوِيَةِ الرُّوحِ .

وما قصدنا بإيراد هذه النماذج من الموشحات إلا إعطاء فكرة عن تنوع موازينها واختلاف قوافيها . أما عن الأزجال فقد اكتفينا منها بمثال واحد ، وضربنا عن أكثرها صفحا . ذلك لأن لغة الزجل ، كما قلنا ، تختلف باختلاف لهجات الأقطار العربية ، وهي بلغة عامية دارجة يشق على الكثير فهمها .

وكم كنا نود أن نمضي في الكلام عن الموشحات والأزجال إلى أبعد من ذلك نظراً لأهمية الموشحات في الموسيقى العربية ، لولا أننا مقيدون بأن تظل في إطار موضوع هذا الكتاب الذي يترجم لزرياب بادیء هذه الحركة ، ومصدر تلك الثروة .

الفصل الثامن

أثره في أوربا

أثره في أوروبا

كاد الاجماع أن يكون تاما بين المؤرخين وعلماء الاجتماع على أن فتح العرب للأندلس كان أهم حدث حضارى اجتماعى وقع فى العصور الوسطى . ذلك بأنه لم يكن غنما وكسبا للعرب بقدر ما كان نورا ورحمة للشعوب الأوربية جمعاء . فلقد انبعثت من بلاد الأندلس حضارة عالمية فاضت على جميع شعوب أوروبا بمختلف ألوان المعرفة من علوم وفنون وآداب ، بعد أن ظلت عشرات القرون قبل الميلاد وبعده تخيم عليها ظلمة الجهالة ووحشة الفوضى والاضطرابات .

وسرعان ما وفدت الى الأندلس العربية البعوث تلو البعوث والوفود تلو الوفود ، من سائر بلاد أوروبا ينهلون من علوم العرب وفنونهم . ولم يقتصر الأمر فى ذلك على من يعينهم الأمر ، ويهمهم طلب المعرفة من الشباب الطموح ومن مختلف الطوائف والهيئات بل كانت هذه البعوث مما اهتم به أيضا ملوك أوروبا وبذلوا فى سبيله عناية ملحوظة ، ولم يقصروا بعوثهم على النابهين من شباب الشعب ، بل ضمنوها صميم أسرهم الملكية وطبقات الأشراف .

وحسبنا هذا المثال دليلا على حاجة أوروبا المتعطشة الى المعرفة ، وعلى عظمة الأندلس الاسلامية .

لقد أرسل جورج الثاني ملك الانجليز ابنة أخيه الأميرة « دوبات » على رأس بعثة من بنات الأشراف ، يرافقهن رئيس موظفى القصر الملكى الذى يحمل كتابا من الملك المذكور الى الخليفة هشام الثالث ، جاء فيه :

من جورج الثاني ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج ، الى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام : بعد التعظيم والتوقير ، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العنصرة . فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة . وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة « دوبات » على رأس بعثة من بنات أشراف الانجليز لتتشرّف بلثم أهداف العرش والتمسّاس العطف لتكون مع زميلاتنا موضع عناية عظمتكم وحباية الحاشية الكريمة ، وحسب من لدن اللواتى سيتوفرن على تعليمهن . وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها ، مع التعظيم والحب الخالص .

من خادمكم المطيع : « جورج »

وكانت الهدية شمعدانين من الذهب الخالص طول الواحد ثلاثة أذرع ، مع أوان ذهبية أخرى عددها اثنتان وعشرون قطعة رصعت بأبدع النقوش ، وتعد من التحف النادرة .

ورد الخليفة هشام على ملك إنجلترا بالرسالة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين . وبعد : الى ملك إنجلترا وايقوسيا واسنكدنلوريا الأجل ! لقد اطلعت على التماسكم فوافقت ، بعد استشارة من يعينهم الأمر ، على طلبكم . وعليه فاتنا تعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى . أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد . وبالمقابلة أبعث اليكم بغالى الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا ، هدية لحضرتكم ، وفيها المغزى الكافى للتدليل على التفاتنا ومحبتنا . والسلام .

خليفة رسول الله على ديار الأندلس : هشام » .

ولم تكن هذه هى الأولى ولا الأخيرة من البعثات التى أوفدها أوربا الى الأندلس ، فقد ذكر المؤرخون أن هذه البعثات بلغ عدد أفرادها عام ٢١٣ هـ ، سبعمائة طالب وطالبة من مختلف مقاطعات إسبانيا وألمانيا وفرنسا ... وهذا التاريخ يقع فى أوائل حكم عبد الرحمن الأوسط ، حيث كان قد مضى على زرياب فى قرطبة سبعة أعوام ، اذ كان قدومه اليها عام ٢٠٦ هـ . وما من شك فى أن كثيرين من أفراد هذه البعثة الكبيرة قد التحقوا ما بين طلبة وطالبات بمدرسة الموسيقى التى أنشأها زرياب فى بلاط عبد الرحمن ، والتى كانت تدرس بها أصول الموسيقى والغناء والعزف بمختلف الآلات وفنون الشعر والرقص .

وتتابعت هذه البعثات من أوروبا إلى هذه المدرسة ، واتسع أمام أفرادها المجال لتعلم هذه الفنون واستيعابها في دراسة وافية . ثم عادوا إلى بلادهم ينقلون إليها من علوم الموسيقى العربية وفنونها وآلاتها ما يعد من المصادر الأولى لخلق النهضة الفنية بها ، وبمشابة الضوء الذي بدأت به شعلة الفن الموسيقى الأوربي التي قدر لها أن تنمو وتزدهر على توالي الأيام .

ومن ثم عرفت بلاد أوروبا لأول مرة مظهر الموسيقيين المتجولين الذين يجولون الطرقات ، وهم يعرضون أغانيهم ورقصاتهم الشعبية ، مرددين فيها ملاحم البطولة وما قتلوه عن عرب الأندلس من قصص ألف ليلة وليلة ، وسندباد ، ويوسف وزليخة وغيرها .

وما كاد يبدأ القرن الحادي عشر حتى رأينا جماعات « الطروبادور » تظهر في جنوب فرنسا ثم في ألمانيا ، وبعدها جماعات « المينيسنجر » . وكلها تتغنى بأوزان جديدة من الشعر استمدوها من ألوان الموشحات والأزجال الأندلسية ، وألحان هي صدى ما لفته بعثات تلك البلاد في قرطبة من موسيقى زرياب ومدرسته وقلاميذه . وقد شابته في أغراضها أغراض الموشحات وفي طليعتها الغزل والتغنى بجمال الطبيعة والمدح والحماسة .

وقد قام « ريبيرا » وزملاؤه من المستشرقين ، أمثال « بالانشيا » و « بروغنبال » و « كلوت » و « دوزي » و « غومس » وغيرهم من المفكرين ببحوث جبارة ، وأوردوا

أمثلة كثيرة من شجر ذلك العصر في كل من فرنسا وألمانيا
وانجلترا وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا في مقارنة وموازنة بين
تلك الأشعار وبين ما استحدث في الأندلس من نظام أشعار
الموشحات والأزجال ، مبرهنين بهذه الأمثلة ومستشعدين بها
على أن ما استجد في أوربا من أوزان الشعر إنما كان انعكاسا
لما احتوته الأندلس من هذه الألوان المبتكرة . وقد أثبت هؤلاء
المستشرقون أن بعض قوالب القصائد المسماة (La ballade)
(La chanson courtoise) والأغاني العاطفية
وغيرها من قصائد شعر التروبادور تتألف من أسماط وأجزاء
تشبه إلى حد ما في ترتيبها أسماط الموشحات وأجزاءها ،
وتتعدد فيها الأوزان والقوافي . وأن نظم شعراء الطروبادور كان
يعتمد في الأهم على الموسيقى والغناء ، كما هو الشأن في
الموشحات .

بل إن بعض هؤلاء المستشرقين ليقول إن لفظ «طروبادور»
ما هو إلا تركيب من الكلمتين العرييتين : دور طرب ، قدمت
فيه الصفة « طرب » على الموصوف « دور » وفقا لأصول بناء
اللغات الأوربية .

وتقول الباحثة الألمانية دكتورة سيجريد هونكه في كتابها
« شمس الله على الغرب — فضل العرب على أوربا » ضمن
فصل مسهب كتبه عن زرياب :

« إن موسيقى الغناء القديمة ، كان مثلها مثل الشعر القديم ،
لا تعرف الايقاع بل تعتمد على مجرد الأوزان التي تنحصر في

مقاطع طويلة وقصيرة . وإن أقدم موسيقى كنسية ترجع الى العصور الوسطى لا تعرف الايقاع ولا الميزان ، وإنما تعتمد عادة على وحدات من النغمات متصلة لا يدخلها التوزيع الموسيقى ، وذلك على نمط تقسيم الجمل الكلامية عن طريق الشولات وما اليها تقسيما منتظما .

أما البناء الايقاعى فهو شرقى أصيل . والايقاع يساعد على خلق « الموسيقى محدودة الزمن » ويؤدى مباشرة الى نظام « المازورة » . وقد يكون هذا هو أهم تراث موسيقى قدمه العرب لأوروبا ، أعنى « الموسيقى محدودة الزمن » التى أدت مباشرة الى ايجاد المازورة .. أما نظرية الموسيقى فى المؤلفات الأسبانية العربية فقد ظهرت فى المصنفات اللاتينية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر .

وأما التراث الثانى الذى ورثه أوروبا فى الموسيقى عن العرب فهو الزخرفة اللحنية العربية . ويلاحظ تمسك العرب فى التأليف الموسيقى بالمبدأ الأفقى^(١) . وهذا هو سر ميل العربى الى الموسيقى الغنائية أكثر من ميله الى موسيقى الآلات . وتدين أوروبا الى العرب فى أكثر آلاتها الموسيقية ، بعد أن أهدت لبيزنطة آلات الأرغن والقانون والجنك (الهارب) ... وقد جاءت كثرة هذه الآلات العربية عن طريق اسبانيا الى أوروبا وما زالت محتفظة بأسمائها العربية . فمن الآلات الوترية : العود والقيثارة والمندولا والمندولين والطنبور والسنتور

(١) تعنى بذلك أن الموسيقى العربية لحنية لا تدخلها الهارمونى المبنية على تالقات راسية .

والقانون ، ومن الآلات الوترية ذلت القوس : الزباب . ومن آلات النفخ : النغير والناي والمزمار . ومن الآلات الإيقاعية : الصاجات والتقارة والدف والمطبل وغيرها .

ثم تستطرد هذه الباحثة الألمانية المستشرقة فتقول في موضع آخر من هذا الفصل :

« وبينما نجد الموسيقيين الأوربيين يعتمدون على ضبط الآلات الوترية على الأذن نجد طالب الموسيقى في مدرسة زرياب يتعلم العزف بالعنق على دساتين وضعت على رقبة العود والجيتار ، قد قيست عليها المسافات الصوتية قياسا دقيقا . وتعد هذه من المزايا الكبرى التي حبيت الآلات الموسيقية العربية الى الأوربيين وبخاصة العود .

وربما كانت هذه الآلات هي التي دفعت الأوربيين الى معرفة الهارموني ، وربما الى العنق أو العزف بالقوس لعدة أوتار في وقت واحد في أبعاد الرابعة والخامسة والجواب مما يناسب الميل الأوربي الى التأليف العمودي ، وقد دفعته الى خلق الموسيقى الهارمونية .

ثم تستطرد الكاتبة في هذا البحث الى ذكر أسماء طائفة من الأوربيين قاموا بترجمة مؤلفات العرب في الموسيقى ممن أفادوا من مدرسة زرياب أو تلاميذها ، الى أن تقول :

« أما المقاطع : دو — ري — مي — فا — صول — لا التي يقال عنها انها من وضع جيلو الأريزي حوالي عام ١٠٢٦ م . وانها عبارة عن أبواثل بمقاطع سطور قديمة يوحنا ، فان الواقع

أن هذه المقاطع الموسيقية إنما اقتبست من المقاطع النغمية
للحروف العربية : د - ر - م - ف - ص - ل (وتجمعها
الكلمتان : در مفصل)^١ . وهذه كثيرا ما فجدها في مصنفات
موسيقية لاتينية مشتملة على كثير من المصطلحات العربية .
وهذه المصنفات اللاتينية ترجع الى القرن الحادى عشر ، وقد
عثر عليها في جبل « كاسينو » الذى كان يقيم فيه العرب .
وعادت الدكتور سيجريد في فصل آخر من كتابها تشير
الى فضل زرياب على أوروبا من زاوية أخرى هى زاوية فن
الغناء . فقالت ما ملخصه : « أما الدور الهام في قف فن الغناء
العربى الى القصور الملكية المسيحية فقد قام به الجوارى
الأسيرات اللواتى كانت القصور الملكية المسيحية تحرص على
الاحتفاظ بهن للموسيقى والغناء والرقيص والسر ، وان ذلك
لم يكن مقصورا على القصور الملكية فحسب ، بل وقصور
الأشراف أيضا . وكان هؤلاء المغنيات يتحلين بحلى الأندلسيات
ويلبسن لباسهن ، وكن فتيات جميلات وسيدات جميعهن
سمراوات البشرة سودلوات العيون يرقصن رقصات أندلسية
غاية فى الروعة . وكن يعاملن الناس معاملة كريمة غاية فى
الظرف ، كما كان يتمتع هؤلاء المغنيات العربيات بتقدير وحب
عظيمين » .



لقد مضيت فى هذا الفصل حرصا على تسجيل الشهادات

(١) ذكر العالم الانجيزى هنرى جورج لارمو مثل هذا القول فى مؤلفاته
عن الموسيقى العربية .

الناطقة بفضل زرباب والأندلس على أوروبا ، بما سجله الأوربيون أنفسهم ، مما يعتز به تاريخ العروبة وتراثها .

ونختتم هذا الفصل بموجز من دراسات وبحوث في هذا الموضوع ، توضيحا لبعض ما قدمنا واستيفاء لتفاصيله ، بقدر ما يسمح به مجال هذا الكتاب :

لقد انتشرت في جميع الممالك الأوربية ، ولا سيما البلاد الجنوبية منها آلات الموسيقى الأندلسية العربية . وكثير منها انتقل اليها بأسمائها التي تتم عن اشتقاقها من أصل عربي كالعود^(١) والقيثارة ولجيتار (Guitar) ، والتقاورة (Nacaire) أو (Naker) ، والدف (Adufo) ، والصنوج (Sonajas) والرباب (Rebec) أو (Rubebe) ، والنير (Anafil) وجمعه أنفار (Fanfare) ، والطبل (Taber) أو (Tabel) ، والقرن (Horn) أو (Corno) الخ .

ومعلوم أن الآلات الموسيقية لا تنتقل الا ومعها موسيقاها . وهذا هو الواقع فان أوروبا ظلت تحت غزو الموسيقى العربية وآلاتها ، فنونها وعلومها ، عدة قرون طويلة حتى بعد عصر الإصلاح . بل لقد ظل استعمال العود منتشرا فيها حتى القرن

(١) العود معناه الحشب . وقد انتقل اللفظ العربي الى جميع اللغات الأوربية وحسبنا أن نسجل هنا أسماءه في اللغات الآتية : الإسبانية **Laud** . البرتغالية **Alaude** . الإنجليزية **Lute** . الفرنسية **Luth** . الإيطالية **Liuto** . الألمانية **Lute** . الدانيماركية **Lut** . السويدية **Lute** . الروسية **Ljunja** . البولونية **Lutnia** . الفنلندية **Lutu** . الصربية **Lutnja** . المجرية **Lant** . الرومانية **Lêuta** . ومكدا .

السابع عشر ، حيث قضى عليه ظهور آلة البيانو وذيوعها لمناسبتها للموسيقى الأوربية الحديثة بعد أن تطور فيها علم الهارموني وصار علما على تلك الموسيقى .

أما الرباب ويرجع الى العرب فضل احياء هذا النوع من الآلات ذات القوس فقد انتقلت أيضا من الأندلس الى أوروبا ، وبخاصة الى البلاد الجنوبية منها . وكان الفضل الأول في ذلك لزرباب ومدرسته وتلاميذه . وكانت وقتئذ ذات أربعة أوتار تتفاضل في الغلظ بين كل اثنين منها . ومن ذلك الوقت عرفت أوروبا لأول مرة الآلات الوترية ذات القوس ، وكان ذلك حوالى القرن الحادى عشر . وهنا بداية ظهور أسرة الكمان . فقد صنع الفرنسيون آلة تماثل الرباب العربية سموها **Rubebe** أو **Rubella** كما صنع الطليان نفس هذه الآلة وسموها روبيكه **Rubece** أوربيك **Rebec** وظاهر في كل هذه الألفاظ اشتقاقها من كلمة الرباب . ثم انتشرت تلك الآلات فعمت أوروبا في القرن الرابع عشر ، وأخذ التغيير يتناولها شيئا فشيئا حتى آخر القرن الخامس عشر ، فسميت تلك الآلات « القيولا » ومعناها الوتر . وصنع منها على مرور الزمن أنواع مختلفة الحجم ثم تطورت القيولا في منتصف القرن السابع عشر ، وصنعت آلة أصغر منها قليلا أطلق عليها اسم « قيولينة » أو « قيولينو » ، تصغير قيولا (وتلك هى الآلة المعروفة لدينا الآن باسم آلة الكمان أو الكمنجة) .

كذلك ظلت أوروبا حتى القرن الثامن عشر تستعمل التدوين

للمبدولى « الآلى » على شكل (تابلاتور) يبين مواضع عناق
الأصابع على الأوتار وكيفية العزف بها وقد أخذت هذا
النوع أيضاً فى الأهم — من بلاد الأندلس .

وانى ما أزال أذكر ما قاله الدكتور « كورت زاكس »
الأستاذ الأول فى جامعة برلين لتاريخ الآلات الموسيقية ، فى
محاضرة له عن تاريخ « البيانو » حيث استعملها بقوله :

« من الثابت أن جميع آلاتنا الموسيقية مصدرها الشرق ،
وقد انتقلت منه الى أوربا بأكثر من طريق . والآلة الوحيدة
التي كانت تعز أوربا بأنها من مبتكراتها هى آلة البيانو .
ولكن ثبت أيضاً أن هذه الآلة مصدرها عربى أندلسى . فإن
أقدم لفظ أوربى أطلق على هذه الآلة فى اللغات الفرنسية
والانجليزية والأسبانية هو « Echiquier » وهو اللفظ العربى
« الشقير » وكان يطلق حتى القرن الرابع عشر على آلة صغيرة
ذات مفاتيح سوداء فبيضاء على التوالى توضع على المنضدة
أثناء العزف ، وتعتبر هذه الآلة إحدى الحلقات الأولى التي
تطورت منها آلة البيانو . واذ أن هذه التسمية ليس لها نظير فى
المشرق العربى ، فالمعتقد أنها إحدى مبتكرات زرياب فى الأندلس .



اننا لم نعرف فى الأندلس ، وقل أن نعرف فى غيرها من
حسن فى الآلات ، وزاد فى الأوتار ، وأنشأ فى الألحان مثل
زرياب . ولم يكن غيره فى الأندلس يمكن أن يتصور اسناد هذه
الابتكار اليه ، سوى منشئ المدرسة ، ومبتكر أساليب الغناء ،
والموحى بالجديد من الشعر والموشحات والأزجال ...

النهاية

تشرق الشمس على العالم ، ويتألق نورها في الأفق مرسلًا
أشعتها الذهبية ضياء ينير طريق البشر . ومهما عظم هذا التألق ،
ومهما قوى هذا الاشعاع فلا بد للشمس أن يدركها المغيب
وللضوء أن يختفى وللأشعة أن تمحى .

وهكذا مصير كل شيء حتى . فلكل بداية نهاية . والانسان
مهما ذاع صيته وبلغت شهرته ، ومهما ملأ الدنيا نشاطا ...
فلا بد لهذا كله أن يقف ولا بد للشعلة أن تنطفئ ...

استطاع زرياب أن يقهر الحوادث أمام قوة عزيمته ، وأن
يجتاز المكاييد في بغداد والمحنة في القيروان . وأن يتغلب على
الحساد والمتآمرين ضده في قرطبة ، فشق لنفسه طريق المجد ،
واخترع للموسيقى وآلاتها ، وابتكر الألحان ونظرياتهما ،
وأنجب ذرية لروحه من تلاميذه وذرية لبيته من أبنائه وبناته .
وعلم من الجوارى ومن الحرائر ، وجدد في كل نواحي الحياة .
فلم يكن نجما من فجوم النهضة الموسيقية فحسب ، بل كان
مصلحا اجتماعيا ورسولا من رسل المدنية والتجديد .

لقد خلف من التراث الموسيقى أكثر من عشرة آلاف لحن
وضاعت أكثرية هذا التراث العالي شأن كل شيء يضعه القدر
فمت رحمة الرواية والنقل ، ولم يتناوله التسجيل وقلم

التدوين . ولكنه على الرغم من ذلك ترك من الآثار الفنية ما أضاء للموسيقى العربية طريق التطور والتجديد وما أثر في الموسيقى العربية جيلا بعد جيل وقد خلق الیقظة الفنية في المشرق والمغرب . وإذا كان قد حدث فيها بعد ذلك الكثير والكثير من وسائل التجديد والابداع ، وفقا لسنة الحياة ، فإن الفضل للمتقدم ولباعت هذه النهضة من بدايتها .

وكما عاش زرياب مجهول تاريخ المولد فقد مات أيضا دون أن يعرف على وجه التحديد تاريخ وفاته . ومن العجيب ألا يعنى أحد من جميع هذه المصادر التى تناولت سيرته وأخباره قديمها وحديثها بالتنويه بتاريخ وفاته . على أننا كما قدرنا لميلاده تاريخا تقريبا استخرجناه من مجموع حوادث حياته ، فاتنا نستطيع كذلك أن نحدد تاريخ وفاته بحوالى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) . أى مع انتهاء حكم عبد الرحمن الأوسط . وذلك لأننا لم نعد نسمع شيئا عن أخباره طوال عهد محمد بن عبد الرحمن الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه فى هذا التاريخ وامتد حكمه حتى سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) .

ومما يؤيد هذا الرأى عودة خصمه يحيى بن حكم الغزال الذى كان قد نكاه عبد الرحمن الأوسط ، وخرج الى العراق على نحو ما سبق أن ألمعنا اليه . فقد عاد هذا الشاعر الى قرطبة بعد موت زرياب ، وفى بداية عهد محمد بن عبد الرحمن الذى كان خامس خليفة من الأمويين عاصرهم يحيى . وفى ذلك يقول :

أدركت بالمصر ملوكاً أربعة
خامسها هذا الذي نحن معه

* * *

وهكذا عاش زرياب حياة كلها حركة بين أخذ ورد ، وجزر
ومد ، ويأس وأمل ، وشقاء وهناء ، وبؤس وسعادة ، حتى
انتهت الحياة وهي قصيرة مهما طالت . وكأنما هو يصفها في
شعره ، حين يقول :

علقتُها ريحانة هيفاء عاطرة نضيره
بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره
لله أيام لنا نسلت على دير المطيره
لا عيب فيها للمتيم غير أن كانت يسيره

وقد قال عبد الرحمن الشر ، منجم عبد الرحمن الأوسط
وقدحه ، في زرياب :

يا على يا بن نافع يا على
أنت أنت المذهب اللوذعي
أنت في الأصل حين يسأل عنه
هاشمي وفي الهوى عشمي

ولعل هذه الذكرى على عظمتها من التاريخ تقدم في عبرتها
الدروس والمثل لمن يقهرون الصعاب ، في سبيل بناء المجد
الرفيع .

عهد الخلفاء

من بنى العباس وبنى أمية في الأندلس

في تصنيف هذا الكتاب تطيف بنا فصوله وموضوعاته على أسماء من بنى العباس في المشرق وبنى أمية في الأندلس . وقد رأينا أن نسجل عهد هؤلاء الخلفاء من بدايتهم الى نهايتهم ، تمكينا لطلاب البحث من تتبع مراحل هذه العهود فيما له علاقة وثيقة بموضوعات هذا الكتاب .



خلفاء بنى العباس (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)

(١) العصر العباسي الأول - النعبي : (١٣٢ هـ / ٧٥٠ م - ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م)

(١٣٢ هـ / ٧٥٠ م - ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م) أبو العباس عبد الله السفاح

(١٣٦ هـ / ٧٥٤ م - ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م) أبو جعفر المنصور

(١٥٨ هـ / ٧٧٥ م - ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م) محمد المهدي بن المنصور

(١٦٩ هـ / ٧٨٥ م - ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م) الهادي بن المهدي

(١٧٠ هـ / ٧٨٦ م - ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م) هارون الرشيد

(١٩٣ هـ / ٨٠٩ م - ١٩٨ هـ / ٨١٢ م) محمد الأمين

(١٩٨ هـ / ٨١٢ م - ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م) عبد الله المأمون

(٢١٨ هـ / ٨٣٣ م - ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م) أبو إسحاق محمد المعتصم

(٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م - ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) الواثق بالله بن المعتصم

(٢) العصر العباسي الثاني - الاصمعي : (٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م - ٢٤٤ هـ / ٩٤٥ م)

(٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م - ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) المتوكل على الله بن المعتصم

(٢٤٧ هـ / ٨٦١ م - ٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م) المنتصر بن المتوكل

(٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م - ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) المستعين بالله بن المعتصم

(٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م - ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) المعتز بن المتوكل

المهتدي بالله بن الواثق
 المعتمد على الله بن المتوكل
 محمد المعتضد بالله
 المتقي لله بن القندر
 القندر بالله بن المعتضد
 القاهر بن المعتضد
 الراضي بالله بن القندر
 المتقي بالله بن القندر
 المستنقضي بالله بن المكتفي

(٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م - ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م)
 (٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م - ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)
 (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م - ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م)
 (٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م - ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م)
 (٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م - ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م)
 (٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م - ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م)
 (٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م - ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م)
 (٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م - ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م)
 (٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م - ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م)

(ج) العصر العباسي الثالث - السقوط : (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م - ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)

المطيع لله بن القندر
 الطابع لله بن المطيع
 القادر بالله بن اسحاق
 القائم بأمر الله بن القادر
 المهتدي بأمر الله
 المستظهر بالله بن القندر
 المسترشد بالله
 الراشد بالله بن المسترشد
 المكتفي لأمر الله
 المستنجد بالله بن المكتفي
 المستفيء بأمر الله
 الناصر لدين الله
 دولة بني أمية بالأندلس :

(٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م - ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م)
 (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م - ٣٨١ هـ / ٩٩١ م)
 (٣٨١ هـ / ٩٩١ م - ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م)
 (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م - ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م)
 (٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ م - ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م)
 (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م - ٥١٢ هـ / ١١١٨ م)
 (٥١٢ هـ / ١١١٨ م - ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م)
 (٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م - ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م)
 (٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م - ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)
 (٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م - ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م)
 (٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م - ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م)
 (٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م - ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م)
 (١٢٨٨ هـ / ٧٥٦ م - ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م)
 (١٢٨ هـ / ٧٥٦ م - ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م)
 (١٧٢ هـ / ٧٨٨ م - ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م)
 (١٨٠ هـ / ٧٩٦ م - ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م)
 (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م - ٢٢٨ هـ / ٨٥٢ م)
 (٢٢٨ هـ / ٨٥٢ م - ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م)
 (٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م - ٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م)
 (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م - ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)
 (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م - ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)
 (٣٥٠ هـ / ٩٦١ م - ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م)

عبد الرحمن بن معاوية
 هشام بن عبد الرحمن
 الحكم بن هشام
 عبد الرحمن بن الحكم
 محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
 المنذر بن محمد بن عبد الرحمن
 عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن
 عبد الرحمن بن الناصر بن محمد
 المستنصر الحكم بن عبد الرحمن

(٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م - ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م)
 (٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م - ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م)
 (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م - ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م)
 (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م - ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م)
 (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م - ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م)
 (٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م - ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م)
 (٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م - ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م)
 (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م - ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م)
 (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م - ٤١٥ هـ / ١٠٢٣ م)
 (٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م - ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م)
 (٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م - ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م)

هشام المؤيد بن الحكم
 المهدي محمد بن هشام
 سليمان المستعين بالله
 المهدي محمد بن هشام (ثانية)
 هشام المؤيد بن الحكم (ثانية)
 سليمان المستعين بالله (ثانية)
 ملك بني حمود
 المستظهر عبد الرحمن بن هشام
 المستكفي محمد بن عبد الرحمن
 ملك بن حمود (ثانية)
 المعتمد هشام بن محمد

المراجع

المصادر العربية :

- | | |
|--|--|
| ابراهيم رزقانه ومحمد صفى الدين | : الوطن العربى |
| ابن أبى دينار | : كتاب المؤنس فى اخبار افريقية وتونس |
| ابن الأبار (تحقيق حسين مؤنس) | : الحلة السراء |
| ابن الأثير | : الكامل فى التاريخ |
| ابن السامى | : مختصر اخبار الخلفاء |
| ابن الطقطقى | : الفخرى فى الاداب السلطانية والدول
الاسلامية . |
| ابن العماد الحنبلى | : اخبار من ذهب |
| ابن النديم | : الفهرست |
| ابن اليقوبى | : تاريخ اليقوبى |
| ابن بسام | : اللخيرة فى محاسن اهل الجزيرة |
| ابن بشكوال (أبو القاسم خلف
ابن عبد الملك) | : كتاب الصلة فى تاريخ الامة الاندلس
وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأديائهم |
| ابن جوقل | : كتاب المسالك والممالك |
| ابن خلدون | : - العبر وديوان المبتدأ والخبر
- المقدمة . |
| ابن خلكان | : وفيات الاعيان وانباء اهل الزمان |
| ابن رشيق | : العمدة |
| ابن سعيد (تحقيق شوقى ضيف) | : المغرب فى حلى المغرب |
| ابن سناء الملك | : دار الطراز فى عمل الموشحات |
| ابن شهيد الاندلسى | : رسالة التوايع والزوايع |
| ابن عبد ربه | : العقد الفريد |
| ابن عساكر | : التاريخ الكبير |
| ابن عميرة الضبى | : بنية الملتقى فى تاريخ رجال الاندلس |
| ابن نباتة المصرى | : شرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون |
| أبو الطيب محمد الوشاء | : الموشى. (أو الظرف والظرفاء) |

أبو الفرج الأصفهاني	: الأغاني
أبو حيان التوحيدى	: الإيقاع والمزاجات
أبو على القالى	: الأمالى
أحمد الاسكندرى وأحمد أمين ورفاقهما	: الفصل فى تاريخ الأدب العربى
أحمد أمين	: - فجر الإسلام
	: - ضحى الإسلام
	: - ظهر الإسلام
أحمد تيمور (باشا)	: الموسيقى والغناء عند العرب
أحمد ضيف	: بلاغة العرب فى الأندلس
أحمد فريد وقلى	: عصر المأمون
أحمد فكرى	: المسجد الجامع بالقىروان
الأبشهى	: المستطرف
الثعالبى	: يتيمة الدهر
المجاهظ (تحقيق أحمد زكى باشا)	: التاج فى أخلاق الملوك
الحفنى (محمود أحمد)	: الموسيقى العربية وأعلامها
	: - تراننا الموسيقى (القسم التاريخى)
	: - اسحاق الموصلى
الخطيب البغدادى	: تاريخ بغداد
السيد عبد العزيز سالم	: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس
الطبرى	: تاريخ الأمم والملوك
العينى الحفنى	: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان
الفتح بن خاقان	: مطلع الأنفس ومسرح التأنس
الكندى (تحقيق الحفنى)	: - رسالة فى خبر تأليف الألحان
	: - رسالة فى أجزاء خبرية فى الموسيقى
المسعودى	: مروج الذهب ومعادن الجوهر
المقرى	: نفع الطيب
المقرىزى	: السلوك فى معرفة دول الملوك
النويرى (شهاب الدين أحمد)	: نهاية الأرب فى فنون الأدب
اللباس الأيوبى	: تاريخ مصر الإسلامى
أميليو فرسيه فومس	: الشعر الأندلسى
(حربيه حسين مؤنس)	
أنخل جنثالث بالينثيا	: تاريخ الفكر الأندلسى
(حربيه حسين مؤنس)	

انطون صالحاني	: وثائق الثالث والثاني
بطرس البستاني	: أدباء العرب في الأندلس
بروكلمان	: تاريخ الأدب العربي
بلايوس : آسين (مؤيد حسين مؤنس)	: تاريخ الآداب الأندلسية
جرجي زيدان	: تاريخ التمدن الإسلامي
جميل نخلة المدور	: حضارة الإسلام في دار السلام
جوده الركابي	: في الأدب الأندلسي
جوستاف لويون	: حضارة العرب
حسن إبراهيم حسن	: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي
حسن حسني عبد الوهاب	: خلاصة تاريخ تونس
حسن خليفة	: الدولة العباسية (قيامها وسقوطها)
حسين مؤنس	: - فتح العرب للمغرب - فجر الأندلس
خير الدين الزركلي	: الأعلام
هوانيه	: تاريخ الموسيقى العربية
(ترجمة من دائرة المعارف الإسلامية)	: تاريخ المغرب العربي
سعد زقلول عبد الحميد	: خمس الله على الغرب (فضل العرب على أوروبا)
سيجيريد هوتكه	: نهاية العرب في فنون الأدب
(ترجمة فؤاد حسنين على)	: - الفن ومذاهبه في الشعر العربي
شهاب الدين النويري	: - الفن ومذاهبه في النثر العربي
شوقي ضيف	: - ابن زيدون
عبد الحميد العبادي	: المجلد في تاريخ الأندلس
عبد الرحمن البرقوقي	: حضارة العرب في الأندلس
عبد الرحمن صدقي	: الحان الحان
عبد الكريم العلاف	: الطرب عند العرب
عبد المنعم الحميري	: صفة جزيرة الأندلس
علي حسني الحريوطي	: العرب في أوروبا
فارمر (ترجمة حسين نصار)	: تاريخ الموسيقى العربية
فايد العمروسي	: الجوازي المقنيات

فيليب قعدان الحازن	: العذارى المائسات في الأزجال والموشحات .
كامل كيلاني	نظرات في تاريخ الادب الاندلسي
لسان الدين الخطيب	: الاحاطة في تاريخ غرناطة
ليفى بروفنسال (ترجمة محمد	: الاسلام في المغرب والاندلس
عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين	
حلمى (
محمد الحضري	: محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية
محمد كرد علي	: غابر الاندلس وحاضرها
	- الاسلام والحضارة العربية
محمد عبد الله عنان	: - دولة الاسلام في الاندلس
	- تاريخ الاندلس في عهد المرابطين
	والموحدين
	- نهاية الاندلس
	- الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا
	والبرتغال
محمود مصطفى	: الادب العربي وتاريخه في العصر
	العباسي
محيى الدين على التميمي المراكشي	: تاريخ الاندلس (المعجب في تلخيص
	أخبار المغرب)
مصطفى صادق الرافعي	: تاريخ آداب العرب
نيكل	: الشعر الاندلسي
ياقوت الحموي	: معجم الأدباء
	- معجم البلدان
يوسف أشباح	: تاريخ الاندلس

مصادر إفرنجية

1. Adler, G.: Handbuch der Musikgeschichte.
2. Adler, G.J.: The poetry of the Arabs of Spain.
3. Bauer and Peyser: Music through the ages.
4. Beichart: Die Wissenschaft der Musik bei Al Farabi.
5. Berner, A.: Studien zur arabischen Musik.
6. Brockelmann: Geschichte der Arabischen Literatur.
7. Clot, A.: Studien zur Arabischen Musik.
8. Dozy, R.: Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almora-vides (711—1110).
9. Ecker, L.: Arabischer, provenzalischer und deutscher Minnesang.
10. El-Hefny, M. A.: Ibn Sina's Musiklehre.
11. Encyclopédie de l'Islam, éd. française.
12. Erman-Ranke: Aegypten.
13. Farmer, H. G.: A History of Arabian Music to the 13th Century.
14. Farmer, H. G.: Studies in Oriental Musical Instruments.
15. Hartmann, M.: Das arabische Strophengedicht. Das Muwassah.

16. Hunke, S.: Allahs Sonne über dem Abendland (Unser arabisches Erbe).
17. Jeanroy, A.: La poésie lyrique des Troubadours.
18. Lachmann, R.: Musik des Orients.
19. Lévi-Provencal, E.: Histoire de l'Espagne musulmane.
20. Nykl, A. R.: Hispano-Arabic Poetry.
21. Ribera, J.: La Musica arabe y su influencia en la Espanola.
22. Rouanet, J.: La Musique Arabe.

وغير ذلك من البحوث ودوائر المعارف والمفاهيم والمجلات
العربية والافرنجية .

تصويب : ص ٨٠ سطر ١٥ صوابه كما يأتي :
للخوارج . غير أن هؤلاء الخوارج اقسموا على أنفسهم الى

الفهرست

صفحة

المقدمة :	٣
الفصل الأول : النشأة والبيئة	٧
- النشأة الأولى	٨
- البيئة	١٤
الفصل الثاني : مدارسه	٢٩
- معلمه ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق	٣٠
- معاصروه من أعلام الموسيقى والغناء	٣٦
- انعكاس حالة بغداد العلمية والاجتماعية عليه	٤٠
الفصل الثالث : في حضرة الرشيد	٤٣
- حقد نثره عنه الفنان	٤٨
- اعتزام الرحيل	٦٠
الفصل الرابع : الى ابن الرحيل	٦٧
- الطريق الى القيروان	٧١
- قصة القيروان	٧٦
- ملوك الأغالة وزرياب	٨٦
الفصل الخامس : أضواء الأندلس	٩٥
- الفنان في قرطبة	١٠٥
- حساد وحاقدون	١٢١
الفصل السادس : أبناؤه وجواريه وتلاميذه	١٢١
- أبناؤه	١٢٢
- تلاميذه وجواريه	١٣٥
الفصل السابع : الموشحات والأزجال	١٤١
- مرحلة البداية	١٤٧
- مرحلة الأزدهار	١٥٠
الفصل الثامن : أثره في أوروبا	١٦٥
النهاية	١٧٧
مهود الخلفاء	١٨٠
المراجع : - مصادر عربية	١٨٢
- مصادر أجنبية	١٨٧

سعدك صباح السبت من كل أسبوع مع عدد جديد
من مجلة

الأناعة والسبنا

التلفزيون • المسرح • السياسة

أقوى المجلات
العربية المصورة

طباعة فاخرة
إخراج رائع

٥٠٠ مليما

٧٢
صفحة
بالألوان

رئيس التحرير
رجاء العزبي

● أكثر من ١/٢ مليون يقرأون مجلة الإذاعة والتليفزيون كل أسبوع

● أعلى رقم وصل إليه توزيع مجلة في الشرق الأوسط



القاهرة في شهر يوليو سنة ١٩٦٥

وتمام

من الراى العام

مجلة الإذاعة التي ظلت
لثلاث أسبوع من الزمان ..
تعود للقرائنها الذين
يتزايدون كل عام .. ومع
تزايدهم .. يزداد نجاحها
وولياتها نحو الأمام .. وفي
عدد النسخة للمجلة .. التي
صدر في عيد النهر ..
الأسبوع التالي .. كانت
الإذاعة .. على موعد مع
ولبة جديدة من ولبات النهر ..
.. فرغم مضاعفة كمية
الطبوع من مجلة أكثر من
كل أسبوع .. فقد ارتفعت
نسبة توزيع المجلة .. حتى
اتهمت السوق كل ما طرح
من النسخ .. وكسيلة
مطلوبة ومحبوبة ..
خضعت نظرية العرض
والطلب .. وظهور السوق
السوداء لتتحكم في توزيع
المجلة طمعا في الحصول
على .. نتيجة العام الجديد ..
القوة .. ونزولا على درجة
الجاهل .. بعيد نشر
النتيجة .. ونشاط كمية
الطبوع من .. الإذاعة ..
وندد القراء بأن تلك طائفة
وبدء كل جديد يرى حقل
المسرفة .. وطيف إلى
إعطائنا الثقافة لثقافة
رفيعة .. ومع أليب تمنياتنا
بظلم الجديد .. كل عام
وانتم بغير ..
.. الإذاعة ..

السيد الأستاذ رئيس التحرير
مجلة الإذاعة والتليفزيون القسرة

تحية طيبة وبعد

يسرنا أن نهنئ بالعيد الثلاثين لصدور مجلة الإذاعة والتليفزيون
راغبين لها بمرام التقدم والازدهار خالصا وقد وصل توزيعها في شهرها الجديدة
إلى رقم ٧٥٠٠٠ نسخة داخل الجمهورية العربية المتحدة ..

والذا لعيد إلى هذا الرقم، التوزيع بمروءكم وأما إلى الهيئات
الأخرى وهي ..

- ١ - توزيع الخارج والبلاد العربية ..
- ٢ - الاشتراكات ..
- ٣ - الهدايا والتمانيات والمبادلات ..

لاحظ لنا أن مجلة الإذاعة قد حققت أولها تزيد من المائة ألف نسخة
وهي أولها لثلاثين ..

نرجو لعدد العدد لتعظيم مايتطلب هذه الكميات من الورق والخامسات
حتى لا نطأ على حقوق تدعى التوزيع ..
والى تولى د. القسرة ..

وتفضل بالبول لائق الاحترام ..

توقيع الأستاذ
أحمد

توزيع داخل	٢٠٤٠٣	٧٤,٨٨٥
توزيع خارج	٢٠٤٠٣	١٣,٣٧٣
الاشتراكات		١١,٤١١
الهدايا والمبادلات		٤,٨٦٤
المجموع		١٠٤,٣٣٣

هذا التفوق في الساعات دليل على دعم القارئ العربي
وتأكيد لنجاح برامج الإذاعة والتليفزيون وتذوق
الجماهير للعمل الفني في السينما والمسرح

دار مطبوعات
٢٧ شارع كمال عبد
المنعم

أَعْلَامُ الْعَرَبِ
مِنْ كِتَابِ الْفَتَا

اکسندی

أَبُو عَمْرٍو مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ
وَكُتَابُهُ الْوَلَاةُ الرَّالِ

مقدم

۱۔ اکیڑھیں

الناشر : مكتبة مصر بالقاهرة
الثبت : ١٠ هـ وفروش